كلية اللغة العربية بأسيوط
المجـلة العلميـة

الألوان واستعمالاتها فى القرآن الكريم وأثرها فى السيكولوجية العربية

" دراسة تحليلة دلالية "

إعداد

أ.د/ عبدالهادي أحمد محمد السلمون

أستاذ أصول اللغة المساعد
في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد التاسع والعشرون – الجزء الرابع - ديسمبر ٢٠١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[1] ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن والاه .

وبعد ،،،

فإن نعمة الدين هي أجل النعم على الإنسان ، وأساس هذه النعمة (القرآن الكريم) ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقد تنوعت أساليب هدايته ، ووجوه إعجازه ، وكتب حول ذلك الكثير ، لكن يبقى القرآن ثرًّا معطاء ، يتجدد بتجدد الأحوال ، ولا تنقضي عجائبه .

والجمال ــ حسيًا كان أم معنويًا ــ عنصر أساسي يعتمد عليه القرآن الكريم في خطاب النفس الإنسانية والتأثير عليها ، ولاشك أن تلك الصور الجمالية ــ التي يعرضها القرآن في سياقات مختلفة تمثل وجهًا من أهم وجوه إعجازه ، فكما يكون الإعجاز في العبارة ، يكون في رسم الصورة والتعبير عنها ، من ذلك حديث القرآن عن الألوان في صور متعددة ، بعضها حسن، وبعضها الآخر غير ذلك .

إن ذكر الألوان في القرآن الكريم ، واختلافها دليل كمال قدرة الله تعالى ، وبديع حكمته ، فقد أوضح (سبحانه وتعالى) أن اختلاف ألوان الآدميين ، واختلاف ألوان الجبال والثمار والدواب والأنعام وغيرها ، كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته ، واستحقاقه للعبادة وحده .

---

[1] سورة الروم : من الآية رقم : ٢٢ .

فقد امتن الله ــ تعالى ــ على خلقه بنعمة اختلاف الألوان في مظاهر كثيرة من المخلوقات ، كالزروع والثمار ، والشراب ، والطبيعة . بل والناس أنفسهم ، فقد صبغ الله الخليقة كل بما يناسبه ، حتى لكأنها تبدو في روض من الألوان بديع ، ولعل آيتي سورة (فاطر) تجمع لنا مشاهد مختلفة من ألوان الطبيعة[1] ، قال ــ تعالى ــ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ . [2]

فللألوان أهمية كبيرة في حياتنا ؛ إذ هي قوة موجبة جذابة تؤثر في جهازنا العصبي ، وللنفس راحة لا يستهان بها عند التطلع إليها ؛ إذ يشملها طرب قد لا يختلف عن طرب الموسيقى والغناء الألوان شعر صامت نظمته بلاغة الطبيعة وبيانها ، فهو كلامها ولغتها المعبرة عن نفسيتها .

" إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور ، وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا ، ويشعر بالحرارة أو البرودة ، وبالسرور أو الكآبة ، بل يؤثر في شخصية الرجل ، وفي نظرته إلى الحياة " . [3]

هذا ، وتأثير اللون لا يتوقف عند امتناع البصر ، وراحة النفس ، ورياضة الذوق ، بل يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك ، فللألوان سلطانها الشامل على النفوس والطبائع والأمزجة ، فهي تسمو بأرواحنا ، وتغذي أعصابنا ، وتريح إحساسنا .

وللألوان دورها في الطب ، والفن ، والفلسفة على مر العصور ، ويعد تأثيرها على العقل والنفس من العوامل ذات الأهمية العظمى في حياتنا اليومية والاجتماعية ، فلا غرابة أن يعني القرآن الكريم عناية خاصة بالألوان ، ويلفت

---

[1] ينظر : مبحث (أهمية الألوان واختلافها) .

[2] الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

[3] الألوان ودلالتها في القرآن الكريم للدكتور : سليمان بن علي بن عامر الشعيلي ص٩١ .

النظر إلى حاجتنا الماسة إليها ، والتي تعادل حاجتنا إلى الطعام والشراب، فكما أن الطعام غذاء ودواء للجسد ، فإن الألوان غذاء وشفاء للروح والجسد معًا .

إن ورود الألوان ــ في القرآن الكريم ــ بالجمع أكثر من المفرد [1] يمكن أن نلمح منه أن الاقتصار على لون واحد ليس جماليًا ولا متعة ، كما يعد استشفافًا واضحًا لقدرة الخالق ، فإن طغيان أو شمول لون واحد في العالم ، مثل فقدان كل لون ، فلا يقبل هذا ولا ذاك ؛ إذ أنه ليس من الجمالية في شيء ، وأي ملل يمكن أن يحيط بحياة الإنسان حين تبدو الحياة بلون واحد ، أو بغير لون !

فحديث القرآن الكريم عن الألوان ــ إذًا ــ جدير بالبحث والدراسة ، وبخاصة أن ما كتب حوله ــ فيما أعلم ــ لا يعدو أن يكون مقالات منشورة في مجلة ، أو على المواقع الالكترونية ، على أنني لم أجد من عرض لاستعمالات الألوان واشتقاقها في لغة العرب ، وربطها بالسياق القرآني ، كما لم أجد ــ فيما أعلم ــ أيضًا ــ من عرض لدراسة الألوان الثانوية التي وردت في القرآن الكريم ، وهي : " التي يمكن الحصول عليها بمزج لونين أو أكثر من الألوان الأساسية " وقد أورد القرآن الكريم كثيرًا من هذه الألوان المتداخلة ، كـ(الحوة) في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾[2] ، و(غبرة وقترة) في قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[3] ، و(شية) في قوله تعالى : ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾[4] وغيرها .

أما ما كتبه الدكتور : سليمان بن علي الشعيلي عن : (الألوان ودلالتها في القرآن الكريم" فإن ما يخص دراسة الألوان لا يتجاوز بضع صفحات ، وأما ما كتبه

---

[1] ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / لمحمد فؤاد عبد الباقي : ٦٥٤ (ل و ن) .

[2] سورة الأعلى : آية رقم ٥ .

[3] سورة عبس : الآية ٤٠ ، ٤١ .

[4] سورة البقرة : من الآية ٧١ .

الدكتور : أحمد رأفت في كتابيه (الرسم بالألوان في القرآن) و(الألوان في القرآن) فقد وظفهما في خدمة تخصصه (الفنون التشكيلية) .

وأما كتب التفسير فلم تعن ببيان صورة الجمال والإعجاز للآيات التي ورد فيها ذكر الألوان ، وقصارى ما يذكره المفسرون : هو بيان المعنى العام ، وما يرمز إليه اللون المستخدم في الآية ، فلهذا وغيره رغبت في الكتابة في هذا الموضوع .

فالبحث الذي بين يدي القارئ محاولة للتأمل في الآيات التي تحدثت عن الألوان (بشقيها الأساسية والثانوية) ، وبيان الصورة الجمالية التي يعرضها القرآن ، في ضوء استخدام الألوان ، كل لون في مكانه المناسب ، واستعمال اللون واشتقاقته في لغة العرب ، وما يرمز إليه ، وأثره في النفس .

ولعل الصعوبة الأولى التي يواجهها الباحث في مثل هذه الموضوعات قلة المصادر ، ولذلك استميح القارئ عذرًا إذا رأى أن من بين مراجع البحث مقالات منشورة في مجلات ، ومواقع على الشبكة الالكترونية ؛ إذ لا مناص من الاستعاضة بمثلها إذا عزت المصادر الأصيلة .

هذا ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يجيء في تمهيد وفصلين ، تسبقهما مقدمة ، وتتلوهما خاتمة ، وفهارس فنية على النحو التالي :

ففي (المقدمة) تناولت أهمية الموضوع ، والسبب في اختياره ، وخطة البحث وطريقة السير فيه .

وفي التمهيد وعنوانه : (الألوان : ماهيتها ، وأهميتها ، وأصلها ، وورودها في القرآن الكريم) .

وقد اشتمل هذا التمهيد على ما يأتي :

أولًا : (تعريف الألوان)

ثانيًا : (أصل الألوان وسبب اختلافها)

ثالثًا : (أهمية الألوان في حياة الإنسان)

رابعًا : (ورود الألوان في القرآن الكريم)

وأما الفصل الأول فعنوانه : (الألوان الأساسية في القرآن الكريم) .

وتضمن أربعة مباحث :

المبحث الأول : (اللون الأحمر) .

المبحث الثاني : (اللون الأخضر) .

المبحث الثالث : (اللون الأزرق) .

المبحث الرابع : (اللون الأصفر) .

وجاء الفصل الثاني : (الألوان المحايدة والثانوية "المتداخلة") في مبحثين:

المبحث الأول : (الألوان المحايدة : الأبيض والأسود).

المبحث الثاني : (الألوان الثانوية) .

هذا ، وقد اتبعت في دراسة هذا البحث منهجًا علميًا وصفيًا وتحليليًا يتلخص في النقاط الآتية :

١. جمعت الألفاظ التي أوردها القرآن الكريم ، في مجال الألوان (الأساسية والثانوية ، والمحايدة) وقمت ببيان اسم السورة التي وردت فيها الآية ، ورقمها ، ثم وزعت هذه الآيات على فصولها ومباحثها .

٢. رتبت الآيات القرآنية داخل المباحث حسب ورودها في المصحف الشريف.

٣. مهدت لكل مبحث (لون) بالحديث عن ماهيته ، وأهميته ، وعدد مرات وروده في القرآن ، واستعماله في لغة العرب ، وكيفية توظيف القرآن لهذه الألوان ــ إيجابًا أو سلبًا ــ مع بيان ما ترمز إليه ، وأثرها في النفس البشرية .

٤. أوردت الشواهد من كلام العرب (شعرًا ونثرًا) التي تؤيد استخدام القرآن

لهذه الألوان واستعمال العرب لها، مع عدم الوقوف ـ في الاستدلال ـ عند عصور الاحتجاج ، بل تجاوزت ذلك ـ زمانًا ومكانًا ـ كما فعل كثير من اللغويين ، ومنهم ابن جني . [1]

٥. أوردت ـ في نهاية كل مبحث ـ خلاصة ، وضحت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج ، تخص اللون المدروس .

وأما (الخاتمة) فقد أبرزت فيها أهم النتائج المستخلصة من البحث عمومًا ، ثم ذيلت البحث بفهرس للمصادر والمراجع والموضوعات .

وختاما آمل أن أكون قد وفقت فيما عرضت له ، والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

الباحث

[1] ينظر: المحتسب في شواذ القراءات ٢/٢٣١، ومن الفروق الدلالية لصاحب هذه الدراسة : ج .

التمهيد

(الألوان : ماهيتها ، وأهميتها ، وورودها في القرآن الكريم)

يشتمل هذا التمهيد على ما يأتي:

أولاً : (تعريف الألوان)

اللونُ : صفة الجسد من البياض والسواد ، والحمرةُ ، وغير ذلك ، فيقال: لونه أحمرُ ، وذكر ابن منظور أن اللونُ : "هيئة كالسوادِ والحمرةِ ، ولون كل شيء : ما فصل بينه وبين غيره ، والجمع ألوانٌ ، والألوان الضروب ، واللون : النوعُ".[1]

وذكر الطاهر بن عاشور أن : " الألوان جمع لون ، وهو عرض ، أي : كيفية تعرض لسطوح الأجسام . بكيفية النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة ، وهو لون السواد ، وشبه الصبح وهو لون البياض ، فهما الأصلان للألوان " .[2]

فكلمة اللون على ذلك تعني : السّحْنة ، والهيئة ، والكيفية ، والنوع .

وقال الراغب : " الألوان يعبر بها عن الأجناس والأنواع، يقال : فلان يأتي بألوان من الطعام والحديث " .[3]

وقد ورد اللون في القرآن الكريم بالمعنيين:الصفة،والجنس أو النوع: ففي قوله ــ تعالى ــ في وصف بقرة بني إسرائيل : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾[4]

---

[1] اللسان ٥ / ٦١١٠ ، وينظر : المعجم الوسيط ٢ /٨٨١ (ل و ن) .

[2] التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٥ .

[3] المفردات في غريب القرآن ٤٥٧(ل و ن) .

[4] سورة البقرة : من الآية : ٦٩ .

يمكن القول أن اللون ــ هنا ــ يعني الصفة التي تقوم بالجسد من البياض والسواد وغيرهما .

ومثل ذلك يقال في قوله ــ تعالى ــ في وصف العسل : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2] .

وعلى المعنى الثاني (أي : الجنس أو النوع) جاء قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾[3] قال الألوسي: " ألوانه ، أي : أصنافه "[4] ، وقد قال الراغب : "الألوان يعبر بها عن الأصناف والأنواع " [5] ، وقوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾[6] قال الألوسي : " إن الألوان ــ هنا ــ تعني أنواعا من التفاح ، والرمان ، والعنب ، والتين ... " . [7]

ولاشك أن تعدد الأصناف والأنواع يؤدي إلى تعدد ألوانها ، فالثمار ــ مثلًا ــ تختلف ألوانها باختلاف أصنافها .

هذا ، وقد ذكر العلماء المختصون بدراسة الألوان أن اللون : هو التأثير الفسيولوجي للأشعة الضوئية التي تعكسها الأجسام على شبكة العين ، فالضوء هو أصل الألوان ، فإن لم يكن هناك ضوء انتفى وجود اللون ، فنحن نرى الألوان

---

[1] سورة النحل : من الآية : ٦٩ .

[2] سورة فاطر : من الآية : ٢٧ .

[3] سورة النحل : من الآية : ١٣ .

[4] روح المعاني ١٤ / ١١١ .

[5] المفردات في غريب القرآن ٤٥٧ (ل و ن) .

[6] سورة فاطر : من الآية : ٢٧ .

[7] روح المعاني ٢٢ / ١٨٩ .

نتيجة سقوط أشعة ضوئية على جسم ما ، وهذا الجسم يمتص بعضها ، ويعكس بعضها الآخر على شبكة العين ، مما يجعلنا ندرك الألوان.[1]

وأول من وجه الانتباه إلى حقيقة العلاقة بين الضوء والأجسام المرئية هو عالم الفلك والبصريات العربي المسلم أبو علي : الحسن بن الهيثم (ت ٩٦٥هـ) فقد أثبت في (المقالة السابعة) من كتابه (المناظر) أن الشيء لا يضيء بذاته ، بل بإشراف نور عليه ، والإبصار لا يتم بأن تخرج العين أشعة منها ــ كما كان يعتقد في عصره ــ وإنما يحدث ذلك بتلقي العين الأشعة المنعكسة عن الأشياء المضادة .

وتابع الرحلة من بعده العالم الإنجليزي : إسحاق نيوتن(ت ١٧٢٧م) الذي قام بأبحاث مستفيضة توصل في نهايتها إلى أن الضوء الأبيض يمكن تحليله إلى سبعة ألوان مرئية ، وذلك بتمرير حزمة ضوئية من خلال منشور ثلاثي ، واستقبال الناتج على حائل أبيض ، والألوان السبعة ــ حسب ترتيبها ــ هي : (الأحمر ، والبرتقالي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلي والبنفسجي) وهذا ما يطلق عليه ألوان الطيف " .[2]

ثانياً : (أصل الألوان وسبب اختلافها)

يرى الجاحظ أن الألوان كلها إنما هي من السواد والبياض ، والاختلاف على درجة المزاج ، قال : " وزعموا أن الألوان في الحقيقة إنما هو البياض والسواد ، وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد على البياض ؛ إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت عن البياض ، فلا تزال كذلك إلى أن تصير سوادًا " .[3]

---

[1] الرسم بالألوان في القرآن الكريم . للدكتور : أحمد رأفت : ١١٢ .

[2] السابق : ٩٧ ، ١١٢ .

[3] كتاب الحيوان ٥ / ٥٩ .

وما ذكره الجاحظ قال به علماء التفسير تقريبًا ، يقول الرازي : " الألوان التي نظن أنها أصول الألوان سبعة ، وهي : الشفاف : وهو الذي لا يمنع نفوذ البصر فيه ، ولا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء الصافي وغيرهما ، ثم الأبيض بعده ، ثم الأصفر ، ثم الأحمر ، ثم الأخضر ، ثم الأزرق ، ثم الأسود .

والأظهر أن الألوان الأصلية ثلاثة : الأبيض والأسود وبينهما غاية الخلاف ، والأحمر متوسط بين الأبيض والأسود ، فإن الدم خلق على اللون المتوسط .

فإن لم تكن الصحة على ما ينبغي ، فإن كان لفرط البرودة فيه كان أبيض ، وإن كان لفرط الحرارة فيه كان أسود ، لكن هذه الثلاثة يحصل منها الألوان الأُخَرُ .

فالأبيض إذا امتزج بالأحمر حصل الأصفر ، يدل عليه مزج اللبن الأبيض بالدم وغيره من الأشياء الحمر . وإذا امتزج الأبيض بالأسود حصل اللون الأزرق يدل عليه خلط الجص المدقوق بالفحم ، وإذا امتزج الأحمر بالأسود حصل الأزرق أيضًا، لكنه إلى السواد أميل . وإذا امتزج الأصفر بالأزرق حصل الأخضر ، فقد علم أن الأصفر من الأبيض والأحمر ، والأزرق من الأبيض والأسود ، والأحمر من الأبيض والأسود"[1].

وقد ذكر الرازي ــ في موضع آخر ــ أن ابتداء الألوان هو البياض ، وانتهاءها هو السواد ، فالأبيض يقبل كل لون ، والأسود لا يقبل شيئًا من الألوان؛ ولهذا يطلق الكافر على الأسود ، ولا يطلق على لون آخر . ولما كانت الجنة الخالية من الزروع متصفة بالبياض ، واللاخالية بالسواد ، فهذا يدل على أنهما تحت الأولين مكانًا ، فهم إذا نظروا إلى ما فوقهم يرون الأفنان تظلهم، وإذا نظروا إلى ما تحتهم يرون الأرض مخضرة".[2]

---

[1] مفاتيح الغيب ١٥/٢٣٤ .

[2] السابق ١٥/٢٣٠س .

أما الطاهر بن عاشور فقد ذكر أن أصل اللون (البياض) لأنه غير محتاج إلى علة ؛ ولأن التشريح أثبت أن لحوم البشر ــ التي تحت الطبقة الجلدية ــ متحدة اللون ، ومن البياض والسواد انشقت ألوان قبائل البشر ، فجاء منها اللون: الأصفر ، واللون الأسمر ، واللون الأحمر .

ومن العلماء ــ وهو كوفين ، عالم طبيعي فرنسي ولد سنة ١٧٦٩م وتوفى سنة ١٨٣٢م ــ جعل أصول ألوان البشر ثلاثة : الأبيض والأسود ، والأصفر ، وهو لون أهل الصين . ومنهم من زاد الأحمر ، وهو لون سكان قارة أمريكا الأصليين المدعوين هنود أمريكا .

ومن مجموع اختلاف اللغات ، واختلاف الألوان تمايزت الأجذام البشرية ، واتحدت مختلطات أنسابها " . [1]

" أما الدارسون المعاصرون لفن الألوان فإنهم يرون ما عده الجاحظ ــ ومن وافقه من علماء التفسير ــ لا يندرج ضمن الألوان الصافية ، لأنها لا لون لها ، فالأسود : هو الامتصاص الكامل للألوان ، أي : انعدامها ، والأبيض : هو الانعكاس الكامل للألوان ، وعلى ذلك فالأبيض والأسود ليسا ألوانًا ، بل يطلق عليها محايدات ، وهي تتوافق مع الألوان جميعًا دون استثناءات على الإطلاق ، ذلك أن الألوان جميعها مشتقة منها ، فهي عبارة عن مجموع هذه الألوان . [2]

فالأبيض والأسود هما درجتان للون واحد ــ وكلمة لون من باب المجاز ــ يبدأ بالأبيض وينتهي بالأسود ، وبينهما درجات الرمادي ، تبدأ بالرمادي الفاتح جدًا القريب من الأبيض، وتنتهي بالرمادي الغامق جدًا القريب من الأسود.

---

[1] التحرير والتنوير ٢١ / ٧٤ ، ٧٥ .

[2] ينظر : الألوان ودلالتها في القرآن الكريم للدكتور/ سليمان بن علي بن عامر الشعيلي : ٦٠ ، ٦١ ، والرسم بالألوان في القرآن الكريم : ٢٥٠ .

أما الألوان الأساسية الأولية ــ التي هي أصل الألوان جميعها ــ فهي عندهم تلك الألوان الصافية التي لا يمكن أن نحصل عليها بمزجها بالألوان الثنائية الأخرى ، وجعلوها ثلاثة ، هي : الأحمر ، والأزرق ، والأصفر . [1]

أما سبب اختلاف الألوان فقد ذكر الطاهر بن عاشور : " أن اختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مساندة أشعة الشمس لها ، فهي من آثار خلق السموات والأرض . [2]

ويقول في موضع آخر : " وأما اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضًا ؛ لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم ، وله لون واحد لا محالة ، ولعله البياض المشوب بحمرة ، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم ؛ وذلك لاختلاف معلول لعدة علل ، أهمها :

المواطن مختلفي اللون بالحرارة والبرودة ، ومنها : التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض . ومنها : العلل والأمراض التي تؤثر تلوينًا في الجسد. ومنها : اختلاف الأغذية ؛ ولذلك لم يكن اختلاف البشر دليلًا على اختلاف النوع ، بل هو نوع واحد ، فللبشر ألوان كثيرة أصلاها البياض والسواد ، وقد أشار إلى هذا أبو علي بن سينا ــ في أرجوزته في الطب ــ بقوله:

بالزنج حَزَّ غيَّر الأجسادا
حتى كسا بياضها سَوادا
والصقلبُ اكتسبت البياضَا
حتى غَدَتْ جلودُها بِضَاضَا[3]

---

[1] الرسم بالألوان : ١٣١ ، ٢٥٠ .

[2] الأبيات من "الرجز" وتنظر في أرجوزته : ٨ ، التحرير والتنوير ٢١ / ٢٣ .

[3] وينظر التحرير والتنوير ٢١ / ٧٤ .

ويقول سيد قطب في معرض حديثه عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[1] : "ومع آية (خلق) السموات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان بين بني الإنسان ، ولابد أنها ذات علاقة بخلق السموات والأرض ، فاختلاف الأجواء على سطح الأرض ، واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان ، مع اتحاد الأصل والنشأة في بني الإنسان " . [2]

إن اختلاف ألواننا يبين ــ فعلًا ــ عظيم قدرة الله ، كما يبين لنا أيضًا أن لهذا الاختلاف في الألوان أهمية قصوى بالنسبة للإنسان ؛ إذ لولاه ما استطاع التمييز بين الأشخاص ، ولترتب على ذلك الجهل الالتباس وتعطيل المصالح ، ولتعقدت الحياة بشكل يصعب معه الحياة ذاتها . [3]

والآية الكريمة ــ سابقة الذكر ــ تلفت النظر أيضا ــ بشكل ضمني ــ إلى اختلاف ألوان سائر المخلوقات سواء كان ذلك من الجنس أو النوع ، بل أكثر من ذلك أرى أنها تلفت أنظارنا لاختلاف ألوان الجنس أو النوع الواحد من المخلوقات سواء أكان ذلك في الطيور أم في الحيوانات ، أم في الحشرات أم في الأسماك وغيرها . [4]

هذا ، وقد امتن الله على خلقه بنعمة اختلاف الألوان في مظاهر كثيرة من المخلوقات ، كالزروع ، والثمار ، والشراب ، والطبيعة ، بل والناس أنفسهم ــ كما سبق ــ فقد صبغ الخليقة كل بما يناسبه ، حتى لكأنها تبدو في معرض من الألوان بديع ، ولعل آيتي فاطر تجمع لنا مشاهد مختلفة من ألوان الطبيعة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ

---

[1] سورة الروم : من الآية : ٢٢ .

[2] في ظلال القرآن ٢٧٦٤ .

[3] الأساس في التفسير ٨ / ٤٢٦٧ .

[4] الألوان في القرآن / للدكتور : أحمد رأفت : ٦٢ وما بعدها .

الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .... ﴾ . [1]

والأعراق البشرية بألوانها السوداء ، والصفراء ، والحمراء ، والبيضاء أجمل الألوان من بين مخلوقات الله ، حتى وإن نفر بعضهم من السواد ، أو الاحمرار ، أو الاصفرار ، فالسود صبغهم الله باللون الجميل الذي يناسبهم مثل البيض ، فلا فرق ــ في الجمالية ــ بين لون ولون ، مادام التلوين يظهر في صورة جميلة بديعة .

فمقابلة السواد بالبياض ليس مقابلة القبح بالجمال ، إن للسواد مواضع زينة وقبح ، وللبياض مواضع زينة وقبح ؛ إذ ليس كل أبيض جميلا ، وليس كل أسود قبيحًا [2] ، وسيأتي ذكر ذلك ــ تفصيلا ــ عند حديث القرآن عن الأبيض والأسود بإذن الله تعالى .

هذا ، وقد أفاد الإنسان من هذه النعمة ــ نعمة اختلاف الألوان ــ التي أنعم بها الله عليه ، فعكف على دراستها ، ثم خرج منها بنتيجة مفادها : أن اختلاف الألوان هذا تستخدمه كل الكائنات بما فيها النباتات للمحافظة على استمراريتها . [3]

فاختلاف الألوان نعمة من الله تعالى امتن بها على خلقه في القرآن الكريم، وهي لا تقل أهمية عن النعم الأخرى التي خلقها الله ، وهذا ــ بلاشك ــ من جوانب إعجاز القرآن الكريم.

ثالثاً : (أهمية الألوان في حياة الإنسان)

لسنا في حاجة إلى تأكيد الأهمية الكبرى التي تلعبها الألوان في حياتنا عمومًا ، فوجود الإنسان لا يمكن تصوره دون وجود الألوان ، إن وظيفتها ليست

---

[1] الآية : ٢٧ ، ومن الآية : ٢٨ .

[2] الألوان ودلالتها في القرآن : ٦٤ .

[3] الألوان في القرآن : ٦٢ ، ٦٣ .

مجرد الديكور والزينة ، ولكنها ــ أيضًا ــ ذات قيمة سيكلوجية واجتماعية لا يمكن إنكارها ، وبخاصة عندما يتم ربطها بالضوء . (١)

هذا ، وقد عرف العرب للألوان أهميتها قبل الإسلام وبعده ، خلافًا لما يراه بعض المستشرقين ــ ومن تأثر بهم من العرب ــ ممن يرون أن الألوان عند العرب قليلة ، وأنهم لم يعرفوا تعدد درجات اللون . (٢)

هذه الدعوى ــ التي لم يقم عليها دليل علمي يعتمد على الإحصاء ــ قد فندها الدكتور : عبد الحميد إبراهيم ؛ إذ ذكر أن العرب قد عرفت تسعة وثمانين وأربعمائة لونًا من الألوان الشائعة، هي في مجملها تثبت ثراء الألوان عند العرب من ناحية ، وتنبههم إلى درجات اللون الواحد من ناحية أخرى . (٣)

ومما يدل على معرفة العرب بالألوان منذ العصر الجاهلي أنهم قد عبروا عنها وبها في فنهم ، وأدبهم ، قال عنترة :

زار الربيعُ رياضَنا وزها بها ∴ فنباتُها حَلِيَتْ بأنواعِ الحلى

يزهو بأحمرَ كالعقيقِ وأصفرَ ∴ كالزعفرانِ وأبيضَ كالسَّنْجَلِ

وبنفسجٍ يزهو إذا عاينتَه ∴ آثارُ نقشٍ في زراعٍ مُمْتَلِى(٤)

كما أدركوا ما للألوان من أثر في النفس البشرية من حيث إدراك النص الجمالي في الصورة التي يرسمها الفنان أو يوضحها الشاعر ، ومن حيث بيان الحالة السيكولوجية لكل من المتكلم والمتلقي ؛ إذ قد تعبر ــ في كثير من الأحيان ــ عن مضمون الحالة في مقام يكون فيه التعبير باللون أبلغ من صريح اللفظ وأوقع في النفس كما في تصوير حال المجرمين يوم القيامة بأنهم يحشرون زرقا وكما في تشبيه الماكر والمخادع بزرقة العين ، وكما في التعبير عن شهرة القتل

(١) الرسم بالألوان في القرآن للدكتور : أحمد رأفت : ١٢٢ .

(٢) ينظر : دراسات نظرية في الفن العربي للدكتور : عفيف بهنسي : ٢٩ .

(٣) قاموس الألوان عند العرب : ٧٥ ، ١٣٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٨ .

(٤) الأبيات من " الكامل " وننظر في ديوانه : ١٩٨ .

والتنكيل بالموت الأحمر ، وكما حكى النقاش عن ابن عباس : " الصفرة تسر النفس ، وحض على لبس النعال الصفرة ، وكقول على (كرم الله وجهه) : " من لبس نعلى جلد أصفر قل همه " .

ولا يخفى على الفطن دعوة القرآن الكريم إلى دراسة الألوان ــ لما لها من أهمية ــ حين يعبر ــ في غير آية ــ بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .[1]

فهاتان الآيتان ــ مع ما تقرره من قدرة الخالق ــ تشير إلى أثر البيئة في اللون الذي يتميز به أناس عن آخرين ، وكذلك الدواب عامة ، يقول ابن كثير ــ في تفسير هاتين الآيتين ــ : "فالناس منهم بربر ، وحبوش ، وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ... وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن تختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ، وهذا اللون".[2]

وفي ذكر الألوان في القرآن الكريم ــ واختلافها وبيان درجاتها وتوضيح مدلولاتها ــ دليل على كمال قدرة الله (سبحانه وتعالى) وبديع صنعه ودلائل حكمته وهذا ما وضحه الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ــ عند تفسيره لآية فاطر ــ إذ يقول : " يذكر ــ تعالى ــ خلقه للأشياء والمتضادات التي أصلها واحد ، ومادتها واحدة ، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف ؛ ليدل العباد على كمال قدرته ، وبديع حكمته ، فمن ذلك : أن الله ــ تعالى ــ أنزل

---

[1] سورة فاطر : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

[2] ينظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٣ .

من السماء ماء فأخرج به من الثمرات المختلفات ، والنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين ، والماء واحد ، والأرض واحدة.

ومن ذلك : الجبال التي جعلها الله أوتادًا للأرض نجدها جبالًا مشتبكة ، بل جبلًا واحدًا وفيها ألوان متعددة ، فيها جدد بيض (أي : طرائق بيض) وفيها طرائق صفر وحمر ، وفيها غرابيب سود ، أي : شديدة السواد جدًا .

ومن ذلك الناس والدواب والأنعام فيها من اختلاف الألوان والأوصاف ، والأصوات ، والهيئات ، ما هو مرئي بالأبصار ، مشهود للنظار ، والكل من أصل واحد ، ومادة واحدة ، فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى التي خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه ، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك ، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف ، وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ، ومعرفة الطرق ، ومعرفة الناس بعضهم بعضًا ما هو معلوم .

وذلك ــ أيضًا ــ دليل على سعة علم الله تعالى ، وأنه يبعث من في القبور ، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له تذكرًا ، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها [1] ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . [2]

وصدق الله إذ يقول ــ قبل هذه الآيات ــ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ﴾ [3] ومن العمى عمى الألوان الذي يسبب متاعب لمن يصابون به ، وهو غير ما يكون في القوم من لغة اصطلاحية ، كما يطلق " الأزرق " في السودان بمعنى الأسود.[4]

---

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ٦٨٨ ، ٦٨٩ .

[2] سورة فاطر : من الآية : ٢٨ .

[3] سورة فاطر : من الآية ١٩ .

[4] دراسات في القرآن (الألوان) للدكتور : أحمد ماهر البقرى : ١١٦ .

فمما لاشك فيه أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك فيه الدلالة القاطعة على أن الله (جل وعلا) واحد لا شبيه له ولا نظير ولا شريك وأنه المعبود وحده . وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار ، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته جل وعلا . [1]

وكما يقول القشيري النيسابوري : " فتخصيص الفعل بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبركاته ، وفي إتقان الفعل وإحكامه شهادة على علم الصانع وإعلامه ... وجميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف ، وهو دليل ثبوت منشيها بنعت الجلال".[2]

رابعاً : ورود الألوان في القرآن الكريم

طبعي أن يرد ذكر الألوان في القرآن الكريم ، فقد ذكرت كلمة (لونها ، ألوانه ، ألوانكم ، ألوانها) تسع مرات في سبع آيات [3] . وقد جاء بمعاني مختلفة ، كالصفة ، أو الهيئة ، أو الجنس ، أو الصنف .

ومن العجيب أنه لم يذكر في القرآن الكريم ــ بشكل مباشر ــ سوى الألوان الأساسية التي ثبت علميًا وعمليًا أنها هي التي يتكون منها جميع الألوان الموجودة في الوجود ــ وهي : (الأحمر ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر) .

ومن العجيب ــ أيضًا ــ أنه لم يذكر في القرآن ــ صراحة ــ إضافة إلى الألوان الأساسية ــ سوى المحايدات ــ وهي: (الأبيض والأسود) وهي التي تنتج من خلط الألوان جميعًا ، أو خلط لونين من الألوان الأساسية . [4]

---

(1) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن / لمحمد الأمين الشنقيطي ٣٤٢/٢ ، وينظر ١٧٣/٦ .

(2) لطائف الإشارات ٣ / ٦٧ .

(3) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / لمحمد فؤاد عبد الباقي : ٦٥٤ ، وهي على الترتيب (البقرة:٦٩، والنحل : ١٣ ، ٦٩ ، والروم : ٢٢ ، وفاطر : ٢٧ ، ٢٨ ، والزمر : ٢١) .

(4) الرسم بالألوان : ١٢٧ ، ١٢٨ .

وإذا كان القرآن الكريم قد استعمل بعض الألوان الشائعة دون بعض ، فإننا نجده يشير إلى تلك الحقيقة في اختلاف الألوان اختلافًا لا يدركه كثير من الناس حين يستعمل كلمة مثل: "غرابيب" و" مدهامتان " و" أحوى " . (١)

ولا يقصد باستعمال اللون في القرآن الكريم الوصف الحسي فحسب ، وإنما يقصد به التأثير على الناس ، وهو متجه دراسة الألوان في العصر الحديث وفي كل عصر .

وإذا كان التأثير في مقصد فنان هو الإدراك الجمالي في الصورة التي يرسمها ، فإن المقصد القرآني يستهدف ذلك الإدراك الذي يوقن منه المرء بقدرة الخالق ، وعظمة تلك القدرة ، بحيث ترقى تلك العظمة إلى مرتبة (الآية) المعجزة ، وذلك صريح قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ . (٢)

والقرآن الكريم حين استعان باللون لم يكن اللون وسيلة ، وإنما كان هدفًا أساسيًا في النص ؛ لرسم الصورة النفسية لدى المتلقي أينما كان ، وبذلك فاللون القرآني يتجدد ــ لا بكل قراءة جديدة للمتلقي العربي فقط ــ وإنما بتنوع القراء المسلمين في كل أجزاء المعمورة أيضًا ؛ ولأن اللون هو أحد عناصر تشكيل الصورة القرآنية ، فقد امتلك إيقاعًا يختلف عن إيقاع اللون في النص الإنساني.(٣)

أما الألوان التي لم تذكر صراحة ــ سواء أكانت أساسية أم محايدة ــ فقد ذكرت بشكل ضمني في كثير من آيات القرآن الكريم ، منها ــ على سبيل المثال ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي

---

(١) دراسات في القرآن الكريم : ١١٣ ، وهذه الكلمات تمثل بعض آيات في سورة: فاطر : ٢٧ ،والرحمن : ٦٤ ، والأعلى : ٥ ، على الترتيب .

(٢) الروم : من الآية : ٢٢ .

(٣) إيقاع اللون في الخطاب القرآني (دراسة سيجمائية) للدكتور : حسين عبد الهادي الرجيلي (مقالة على النت) .

شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١)

فـ(الصبغة) ـ هنا ـ : الدين ، ويظهر أثره عليهم ظهور أثر الصبغ على المصبوغ ، يقول القرطبي : " فسمى الدين صبغة ، استعارة ومجازًا ، من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب " . (٢)

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ (٣) فـ(الصبغ) ـ هنا ـ : ما يصبغ به من الخبز ، ويؤكل ، أي : الإدام ، قال الألوسي : " يقال : صبغ الثوب بصبغ حسن وصباغ ، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام ؛ لأن الخبز يغمس فيه ويلون به ، كالخل ، والزيت ، وظاهر هذا اختصاصه بكل مائع ، وبه صرح في المصباح ، والأمر على خلافه " . (٤)

وقال القرطبي : " أصل الصبغ : ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به ؛ لأن الخبز يلون بالصبغ إذا غمس فيه " (٥) فتأمل اللفتة القرآنية إلى لون الإدام الذي لا يكاد يلتفت إليه كثير من الناس . (٦)

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾(٧) أي : لا لون فيها غير الصفرة الفاقعة(٨) ، أي : خلصت صفرتها عن أخلاط سائر الألوان (٩) ، قال الفخر الرازي :

---

(١) البقرة : الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٦٣٥ .

(٣) المؤمنون : ٢٠ ، والمقصود : شجرة الزيتون .

(٤) روح المعاني ١٨ / ٢٣ ، والمصباح المنير للفيومي : ٣٩٢ (ص ب ع) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٤٦٤٩ ، ٤٦٥٠ .

(٦) دراسات في القرآن : ١١٤ .

(٧) البقرة : من الآية : ٧١ .

(٨) معاني القرآن للفراء ١ / ٤٨ .

(٩) البحر المحيط / لأبى حيان الأندلسي ١ / ٢٥٧ .

"فالمراد أن صفرتها خالصة غير ممتزجة بسائر الألوان ؛ لأن البقرة الصفراء قد توصف بذلك إذا حصلت الصفرة في أكثرها ، فأراد الله تعالى أن يبين عموم ذلك بقوله تعالى : " لا شية فيها " . والوشي: خلط لون بلون " [1] . وهي مأخوذة من وشي الثوب: إذا نسج على لونين مختلفين ، والمعنى : أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر . [2]

وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث حديث القرآن الكريم عن الألوان غير الأساسية .

---

[1] مفاتيح الغيب ٢ / ١٦٩ .

[2] ينظر : الصحاح ٦ / ٢٥٢٤ (و ش ى) والفتح القدير / للشوكاني ٩٨/١ .

الفصل الأول

الألوان الأساسية في القرآن الكريم

تعد الألوان الأساسية (الأحمر ، والأخضر ، والأصفر ، والأزرق) أصل الألوان جميعها ، وسميت بالأساسية ؛ لأنه لا يمكن استنباطها من الألوان الأخرى وقد ذكرها بعض الباحثين باسم (الألوان الابتدائية) ، وذكرها بعضهم الآخر باسم (الألوان الأولية) .

وسميت أساسية ــ أيضًا ــ لأنه يمكن تركيب أي لون بمزجها بالنسب المحددة، فمزج الضوء الأحمر بالضوء الأزرق يعطي لونًا بنفسجيًا زاهيًا ، وبمزج اللونين الأحمر والأخضر نحصل على ضوء أصفر . [1]

ومما يدعو إلى التأمل والتفكر أن هذه الألوان الأساسية قد ذكرت في القرآن الكريم ، وقد يكون ذلك وجهًا يضاف إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لا تعد ولا تحصى .

فاللون الأصفر قد ذكر في القرآن الكريم خمس مرات ، والأخضر ثماني مرات ، وكل من الأحمر والأزرق مرة واحدة. [2]

وفي الصفحات القادمة سأقوم بدراسة هذه الألوان ، مبينًا كيفية ورودها وأثرها الدلالي ، والنفسي والإعجازي .

---

[1] الرسم بالألوان : ١٣١ .

[2] ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٩، ٢٣٢، ٢١٨، ٢٣٠ على الترتيب .

المبحث الأول

اللـون الأحمـر

اللون الأحمر هو أحد الألوان الأساسية التي يتكون منها جميـع الألـوان الموجودة في الوجود ، سواء المرئية أو الملموسة ، وهو أول الألوان التي عرفها الإنسان الأول ، واستخدمه في زخارفه لذا كان يسمى في التاريخ بأول الألوان . [١]

وقد عرف العرب ـ في الجاهلية ـ اللون الأحمـر فـي نبـات الحنـاء ، واستخدموه في خضاب (صباغة) شعر اللحية ، والرأس الأبيض ، بل واستخدمه الرسول ـ ﷺ ـ وأمر أصحابه أن يستخدموه . [٢]

هذا ، وقد استخدم المسلمون اللون الأحمر ـ كما استخدمه غيرهم ـ في زخرفة مساجدهم ومبانيهم ، وفي الرسم والتصوير على الحوائط ، وفي كتب الأدب ، والكتب العلمية ، كما استخدموه في أعز وأغلى ما عندهم ، وهو القرآن الكريم.

فقد كان الكتاب في أول الأمر يكتبون (نقط التشكيل) بـاللون الأحمـر ، خاصين (الهمز المحقق) باللون الأصفر ، ومنهم من اقتصر على استخدام اللون الأحمر ـ وحده ـ للحركات والهمزات ، قال أبو عمر والداني : " والذي يستعمله نقاط أهل المدينة ـ في قديم الدهر وحديثه ـ من الألوان في ـ في نقط مصاحفهم ـ الحمرة والصفرة لا غير . فأما (الحمـرة) فللحركـات والـسكون والتـشديد والتخفيف ، وأما (الصفرة) فللهمزات خاصة .. فأما نقاط أهل العراق فيـستعملون للحركات وغيرها ، وللهمزات الحمرة وحدها ، وبذلك تعرف مصاحفهم ، وتميز من غيرها " . [٣]

---

[١] العمدة في صناعة الشعر لابن رشيق القيرواني ١١٣/٢، والألوان في القرآن : ٢٧ .

[٢] المغنى / لابن قدامة ١ / ١٠٨ .

[٣] ينظر : المحكم في نقط المصاحف / لأبى عمرو الداني : ٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

اللون الأحمر اشتقاقه واستعمالاته عند العرب :

أما عن استعمال هذا اللفظ أو اللون ودلالته في اللغة فقد أورد الخليل بن أحمد أن الحمرة : لون الأحمر ، تقول : قد احمرَّ الشيء احمرارًا: إذا لزم لونه فلم يتغير من حال إلى حال ، واحمارّ يحمارَّ احميرارًا: إذا كان عَرَضَ حادثًا لا يثبت ، كقولك : جعل يحمارُّ مرة ، ويصفارُّ مرة ، والحُمرة : داء يعترى الدابة من كثرة الشعير ، تقول : حمر يحمر حمرًا،وبرزون حمر ، قال امرؤ القيس :

لعمري لَسَعْدُ بنُ الصِّبابِ إذا غَدَا ∴ أَحَبُّ إلينا منك فَافْرَسِ حَمِرِ[1]

أراد : يا فرس حمر ، لقبه بفى فرس حَمِرٍ لنتن فيه .

والحُمرةُ : داء يعترى الناس فتحمر مواضعها يعالج بالرقية. والحمرة : ضرب من الطير كالعصافير ، وبعض يجعل العصافير الحمرة ، قال الشاعر :

يالك من حُمرة بالجنفرِ [2]

وحمَّارَةُ الصيف : شدة وقت الحر ، ولم أسمع على (فعالة) غير هذه ، والزَّعارة ، ثم سمعت بخراسان صَبَّارة الشتاء ، والأحمران : الزعفران والذهب ، وموت أحمر ، وميتة حمراء ، أي: شديدة ، قال الشاعر :

نَسْقِي بأيدِينا مَنَايَا حُمْرًا [3]

وسنة حمراء ، أي : شديدة ، قال الشاعر :

إليكَ أشكُو سَنَواتٍ حُمْرًا [4]

---

[1] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ١١٣ ، وتهذيب اللغة ٥/٥٧ .

[2] البيت من " الرجز " وينظر في العين ٣/ ٢٢٦ .

[3] البيت من " الرجز " وينظر في العين.٣/ ٢٢٧ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٥٧

[4] العين ٣/ ٢٢٦ وما بعدها " بتصرف " والبيت من الرجز وينظر في العين ٢٢٦/٣ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٥٧ (ح م ر) .

فاللفظ الدال على اللون جاء منه عدة مشتقات ، هي : أحمرُ ، وحمـرةٌ ، وحَّمارةٌ ، وحُمْرٌ ؛ وذلك في الأوصاف الثابتة الملازمة لموصوفاتها . وجاء منه احمرَّ احمرارًا ، واحمارَّ يحمارُّ أحميرارًا لما كان وصفًا عارضًا متغير اللون .

هذا ، وقد وضع اللفظ في أصله للدلالة على اللون المعروف ، وهو من أحسن الألوان ، لأن النفوس كلها لا تكاد تكره الحمرة ، ومنه سمي العجم الحمراء ؛ لأن الشقرة أغلب الألوان عليهم [1] .

ثم استعمل اللفظ وصفًا لما فيه شدة ، ومنه حديث علي : " كنا إذا احْمَرَّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه " قال الأصمعي : يقال : الموت الأحمر ، والموت الأسود ، ومعناه : الشديد ، قال أبو عبيد: " وأرى أنه مأخوذ من ألوان السباع ، يقول : كأنه ــ من شدته ــ سبع إذا أهوى إلى الإنسان ، قال أبوزبيد الطائي ــ يصف الأسد ــ :

إذا عَلَقَتْ قَرْنًا خَطَاطِيفُ كَفِّـه ∴ رأى الموتَ بالعينينِ أسودَ أحمرا[2]

قال أبو عبيد : " فكأن عليا أراد بقوله : احمرَّ البأسُ ، أنه صار في الشدة والهول مثل ذلك .

ومن هذا ــ أيضا ــ حديث عبد الله بن الصامت ، قال: "أسرعَ الأرضِ خرابًا البصرة ومصر . قيل : وما يخربهما ، قال: القتل الأحمر ، والجوع الأغبر " . [3]

---

[1] مقاييس اللغة / لابن فارس / (ح م ر) ، والعين ٣ / ٢٢٦ .

[2] البيت من " الطويل " وينظر في غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٨٠ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٥٧ .

[3] غريب الحديث ٣ / ٤٨٠ .

قال أبو عبيد : " فكأن المعنى في هذين الحديثين : الموت الجديد ، مع ما يشبه به من ألوان السباع " . (١)

ثم استعمل اللفظ اسمًا لداء يعتري الناس أو الدابة ـ كما سبق ـ في قول امرئ القيس ، وعليه يوصف الفرس والحمر ، وكذا الرجل إذا هجاه أحد لنتن في فيه .

ولدقة ملاحظة العربي فإنه يرى اللون الأحمر بوضوح رغم اختلاطه بالأبيض في ذوى البشرة البيضاء من الأعاجم ؛ لذا قال الأصمعي : " يقال : أتى كل أسود منهم وأحمر ، ولا يقال : أبيض " ومعناه : أتاني جميع الناس : عربهم وعجمهم(٢). وفي الحديث : " بعثت إلى الأحمر والأسود " (٣) أي : الإنس والجن . وقيل : المراد بهما الأبيض والأسود من الناس ؛ لأن النعتين يعمان الآدميين جميعًا (٤) . وقال شمر : يعني العربي والعجم ، فالغالب على ألوان العرب السمرة والأدمة ، وعلى ألوان العجم البياض والحمرة " . (٥)

وما يدل على المقصود بالأحمر ـ هنا ـ الأعاجم ـ لاحمرار وجوههم ـ ما جاء في صحيفة همام بن منبه الصنعاني (ت ١٣٢هـ) : " قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا (جوزكرمان) قوما من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة " . (٦)

---

(١) ينظر : غريب الحديث لأبي عبيد ٣ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٢) إصلاح المنطق : ٢٨٣ .

(٣) مسلم ـ مساجد ـ ١/ ٣٧٠ ، ٣٧١ ، والمسند ١/ ٢٥٠ ، ٣٠١ .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١ / ٤٣٧ (ح م ر) .

(٥) تهذيب اللغة ٥ / ٥٥ (ح م ر) .

(٦) صحيفة همام منبه ص٦١ تح / علي حسن علي عبد الحميد ـ المكتب = =الإسلامي ، ودار عمان ـ بيروت ، وعمان ـ ط أولى ١٤٠٧ / ١٩٨٧ . وصحيح البخاري جـ٣ ١٣١٥ حديث رقم ٣٣٩٥ باب علامات النبوة في الإسلام .

وسئل ثعلب لم خص ــ ﷺ ــ الأحمر دون الأبيض ؟ فقال : لأن العرب لا تقول : رجل أبيض من بياض اللون ، إنما الأبيض عندهم الطاهر النقي من العيوب ، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا : أحمر . (١)

وفي المعجم الوسيط : " الأحمر من الأشياء : ما لونه الحمرة ، والذهب ، والزعفران ، جمع حمر ، وحمران ، وأحامر ، وأحامرة ... والموت الأحمر : القتل ، والموت الشديد ، والأحمران : الذهب والزعفران ، واللحم والخمر ، والخبز واللحم " . (٢)

هذا وقد ورد ذكر اللون الأحمر في القرآن الكريم مرة واحدة فقط ، في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . (٣)

إن تمثيل الألوان في هذه الآية الكريمة لا يمكن أن تخطر على بال ، فالعلاقة ــ هنا ــ في المعاني تأسر الألباب ، ونزول الماء من السماء على أرض ظامئة ــ لا لون فيها ولا حياة ــ تعقبه ظهور النباتات بعد هذه الوحشة ، وإخراج الثمرات بألوان شتى ، فلا تحديد ــ هنا ــ للون ، ولا لمجموعة ألوان دون أخرى، وهو متروك للخيال .

ولكن عندما تلتها كلمة الجبال ، مباشرة بضخامة تأثيرها، ووصفها على شكل مجموعات بيضاء وحمراء متنوعة الدرجات ، بمجموعة شديدة السواد ، فإن ذلك يؤكد التبيان ، وقوة التعبير التشكيلية في تمثيل اللون الأحمر بوضعه بين

(١) تهذيب اللغة ٥ /٥٩ ، والنهاية ١ / ٤٣٧ (ح م ر) .
(٢) مادة (ح م ر) ١ / ٢٠٣ ، وتهذيب اللغة ٥ / ٥٨ .
(٣) فاطر : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

اللون الأبيض والأسود ، حيث يظهر الأبيض أكثر نصوعًا ووضوحًا بين اللونين الأسود والأحمر . [1]

وقيل : إن الألوان في الآية الكريمة جاءت كناية عن تباين الطرق وبيان المشتبه والواضح منها فالأبيض كناية عن الطريق الواضح والتي كثر سلوكها ، والأسود كناية عما خفى منها والتبس ، والأحمر كناية عما كان واسطة بينهما على سبيل (التدبيج) وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يقصد الكناية بها أو التورية يذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون .

أو يذكرهما لبيان فائدة الوصف بها ، كقوله تعالى :﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فإن المراد بذلك ــ والله أعلم ــ الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق ؛ لأن الجادة البيضاء هي : الطريق المجلوب التي كثر السلوك فيها جدًا ، وهي أوضح الطرق وأبينها ؛ ولهذا قيل : ركب بهم المحجة البيضاء ودونها المراء ، ودون الحمراء والسوداء التي كأنها الخفاء والالتباس ضد البياض في الظهور والوضوح .

ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة ، فالطرف الأعلى في الظهور البياض ، والطرف الأسفل في الخفاء السواد ، والأحمر بينهما على حكم وضع الألوان في التركيب وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة .

والهداية بكل علم نُصيب للهداية تنقسم هذه القسمة ، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم ، فحصل فيها التدبيج وصحة التقسيم ، وهي مسوقة للاعتداد

---

[1] إيقاع اللون في الخطاب القرآني / مقالة من النت .

بالنعم على ما هدف إليه من السعي في طلب المصالح والمنافع ، والفرار من المضار والمعاطب . [1]

ومن التدبيج الحسن قول الحريري : " فمذ أزور الحبيب الأصفر ، وأغبر العيش الأخضر ، أسود يوحى الأبيض ، وأبيض فودى الأسود حتى رئى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموتالأحمر [2] ، إلا أن تدبيج الآية الكريمة جاء بلفظ الكناية لبيان فائدة الوصف بالألوان ، وتدبيج المقامة أتى بطريق التورية .

ومن التدبيج قول أبى تمام ــ في مرثيته لمحمد بن حميد الطوسي ــ :

تروى ثياب الموت حمرًا فما أتى ∴ لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضرِ[3]

وقول البحتري :

تحسنت الدنيا بعدلك فاغتدت ∴ وآفاقها بيض وأكنافها خضر[4]

كما أن في الآية تقرير لقدرة الله ووحدانيته من خلال ذكر الجبال وألوانها والصخور وأنواعها ، يقول سيد قطب : " إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها : في الثمرات ، وفي الجبال ، وفي الناس وفي الدواب والأنعام ، لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعًا ، وتدع القلب مأخوذًا بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير يشمل الأرض جميعًا ".[5]

---

(١) ينظر : كتاب تحرير التحبير فبي صناعة الشعر والنثر / لابن أبى الإصبع المصري : ٥٣٢ والإتقان في علوم القرآن / للسيوطي ٢٦٨/٣ نقلا عن ابن أبى الأصبع.

(٢) مقامات الحريري : ١٢٩ " المقامة البغدادية " ، وتحرير التحبير :٥٣١ .

(٣) البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي ٤/ ٨٤.

(٤) البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ٢/ ٥٤ .

(٥) في ظلال القرآن:٢٩٤٢،والألوان في القرآن،مقالة لأحمد بن ناصر الرازحي(انترنيت).

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات ؛ ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات فإنه لا يذكر ــ هنا ــ من الثمرات إلا ألوانها : " فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا " ... وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، والجدد : الطرائق والشعاب ، وهنا لفتة في النص صادقة ، فـ(الجدد البيض) مختلف ألوانها فيما بينها ، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها ، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك (جدد غرابيب سود) حالكة السواد.

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ــ بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ــ تهز القلب هزًا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر نظرة تجريدية فتراه في الصخرة ، كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة ، وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان ، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصرًا مشتركا بين هذه وتلك ، يستحث النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس ، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة كعامة أجناس البشر فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه ، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملًا واحدًا في بطن واحدة . وكذلك ألوان الدواب والأنعام والألوان والأصباغ فيها معرض ــ كذلك ــ جميل ، كمعرض الثمار ، ومعرض الصخور سواء .

إن عنصر الجمال يبدو مقصودًا قصدًا في تصميم هذا الكون وتنسيقه ، ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدي عن طريق جمالها .. ومن ثم تكون اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض " . [1]

[1] في ظلال القرآن ٢٩٤٢ ، ٢٩٤٣ .

وخلاصة القول : أنه على الرغم من أن (اللون الأحمر) ـ عادة ـ ما يذكرنا بنيران جهنم في الآخرة ، واندلاع الحرائق في الدنيا ، وما تحدثه من خراب ودمار ، وبالمعارك الدامية ، وما تحدثه من تدمير، ولون الدم ... إلا أن القرآن الكريم أراد أن يلفت نظرنا للوجه الآخر الحسن لهذا اللون ، فقدمه لنا وسط لوحة بهية زاهرة ، عامرة بآلاف الألوان والدرجات اللونية : ألوان الصخور، والزورع والثمار ، والدواب والأنعام ، والناس.

واختص في كل ذلك (اللون الأحمر) بالذكر ، فالأبيض والأسود محايدان ليست ألوانًا ، منها نستخلص الألوان ، وبمجموع الألوان تكون ، لكن (الأحمر) لماذا؟ لأنه لون النار والدم ، وهما يحملان ـ أيضًا ـ في طياتهما الخير ، فـ (النار) ؟ نعمة من نعم الله على خلقه لا غنى عنها ، والدم ـ أيضًا ـ رمز الحياة ، فبه تكون عند جريانه في العروق .[1]

[1] الرسم بالألوان في القرآن : ٢٤٩ .

المبحث الثاني

(اللون الأخضر)

هو أحد الألوان الأساسية التي يتكون منها جميع الألوان الضوئية الموجودة في الوجود ، وقد عرفه الإنسان منذ عرف الألوان ، ورمز به للنمو والخصوبة والنضارة ، والأمل والسكينة والحياة ، كما عرف عنه أنه من الألوان التي تضفي على النفس البشرية الهدوء والسكينة والطمأنينة والسعادة . (١)

ولكونه لون محبوب فقد أطلق عند العرب على كل جميل، فيقال : الأخاضر للذهب واللحم ، والخضرة من الألوان: لون الأخضر ، يكون ذلك في الحيوان ، والنبات ، مما يقبله. (٢)

وهو لون يريح البصر ؛ ذلك أن المساحة البصرية له أصغر من المساحات البصرية لباقي الألوان ، كما أن طول موجته وسطى ، فليست بالطويلة كاللون الأحمر ، وليست بالقصيرة كالأسود ، ومما يميزه عن غيره من الألوان أنه يتوافق مع أغلبها فلا يتنافر معها .

ومما اكتشفه الصينيون حديثًا أن اللون الأخضر يقتل الجراثيم والبكتريا ، ويسكن الألم ، ويقاوم الإنهاك والشعور بالتعب ، فيشعر صاحبه بأريحية وسعادة ، وبذلك عرف السر في استخدام الفراعنة للون الأخضر في مقابرهم لحفظ الموميات من التحلل البكتيري . (٣)

وقد أثبت خبراء اللون الأمريكيون أن اللون الأخضر الفاتح يعمل على تنشيط الغدد ، وتخليص الجسم من السموم والفضلات ، كما أثبت خبراء اللون في (لندن) أن المعالجة بالألوان قد جاءت بفائدة عظيمة في معالجة أمراض

---

(١) الرسم بالألوان في القرآن الكريم : ١٧٣ .

(٢) الصحاح ٢ / ٦٤٦ ، والمحكم ٥ / ٣٨ (خ ض ر) .

(٣) الألوان ودلالتها في القرآن الكريم : ٦٧ .

الصدمات العصبية ، وأن اللون الأخضر من أهم الألوان التي تعالج تلك الحالة . [1]

ولما كان اللون الأخضر لونا يبعث على السرور والبهجة، وحب الحياة ، ويوحي بالجمال والنماء ، والنعيم ، أصبح اللون المفضل في غرف العمليات الجراحية لثياب الجراحين والممرضات.[2]

من هنا كان لهذا اللون مكانته عند المسلمين ؛ إذ هو مبعث البهجة والسرور ــ كما سبق ــ في الدنيا ، وهو لون ثياب أهل الجنة ، وما يتكئون عليه وما يحيط به من حدائق غناء دائمة الخضرة في الآخرة .

وهو من الألوان المحببة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقد روى عن أبى رمثة (رضي الله عنه) أنه قال : " رأيت رسول الله (ﷺ) وعليه ثوبان أخضران " . [3]

ويكنى عن المرأة الحسناء بالخضراء ، كما ورد عن النبي (ﷺ) : " إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء " [4] كما يقال للسماء: خضراء ، من ذلك قوله (ﷺ) : " ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر " فاستعمل اللون الأخضر ــ لتميزه وحسنه ــ بدلًا من اللون الأزرق . [5]

---

[1] الرسم بالألوان في القرآن ١٧٢ .

[2] الألوان ودلالتها : ٦٧ .

[3] مسند الإمام أحمد ٣ / ٢٤٠ .

[4] النهاية في غريب الحديث ٢ / ٤٢ (خ ض ر) .

[5] السابق : المصدر والصفحة .

استعمال لفظ (خضر) وما اشتق منه في لغة العرب :

بالرجوع إلى مصادر اللغة نجد أن العرب قد استعملت مادة (خضر) وما اشتق منها في أكثر من معنى، على النحو التالي:

استعمل اللفظ أول ما استعمل في الدلالة على اللون المعروف ، وكان هذا اللون من شعار الملوك في الجاهلية ، قال النابغة :

يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نعيمُها

بخالصةِ الأردانِ خُضْرِ المَنَاكِبِ[1]

وهذا اللون عندهم أميل إلى السواد ، فالعرب تقول : ليل أخضر ، أي : مظلم أسود [2] ، يقول ابن دريد : " العرب تسمي الأسود أخضر ، قال الشماخ :

وراحتْ رَوَاحًا من زَرُودٍ فَنَازَعَتْ

ذُيَالةَ سربالًا من الليل أخضرا[3]

يعني : ناقة أسرعت إلى ذُيَالةَ موضع بين مكة والكوفة ، فكأنها نازعتها الليل ، وقال (عز وجل) : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي: سوداوان ؛ لشدة خضرتهما ، يعني : الجنتين ، وسمي سواد العراق سوادًا ؛ لكثرة الشجر والمياه والخضرة فيه . [4]

ومما يدل على أن الخضرة إلى السواد أميل أنه قد استعمل وصفا للكتائب وللمحارب ، وقد دل فيهما على السواد كما ذكر الجاحظ [5] ومن ذلك قول لبيد :

أَوَتْ للشِّياحِ واهتدى لصليلها

كتُائب خضرٍ ليس فيهن نَاكِلُ[6]

---

[1] البيت من " الطويل " ينظر : في التحرير والتنوير ٦١/١٥ ، وهو في ديوانه : ٤٧.

[2] تهذيب اللغة : ٧ / ٥٠ .

[3] البيت من " الطويل " وهو في ديوانه : ١٣٩ برواية (جلبابا) بدل (سربالا) .

[4] حمدة اللغة ٢٠٨/٢ (خ ض ر) .

[5] الحيوان ٣ / ٣٤٧ .

[6] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ص١٣٥ .

وقد استعمل هذا الاستعمال ، أي في الدلالة على السواد عبر العصور ، من ذلك قول كثير عزة :

خَفِـيٌّ تَعَـشَّى فـي البحـارِ ودونَـه
مـن اللَّـجِ خُـضْرٌ مُظْلِمَـاتٌ وسُـدَّفُ[1]

وقال معروف الرصافي :

فثـار هُلاكُـو بـالمغول تؤمُّـه
كتائبُ خضرٍ تضرب السهلَ بالصعبِ[2]

كما استعمل هذا اللون وصفًا لليل ، وللخيل ، فمن الأول قول القطامي :

* يـا نـاقُ خُبَّـي خَبَبـًا زُوَرَّا *
* وقَلِّبـي مَنْسِمَـكِ المُغبَّـرَا *
* وعارِضي الليلَ إذا ما اخضرَّا * [3]

أراد : إما أظلم ، أو أسود .

ومن الثاني قول أبي عبيده : " الأخضر من الخيل : هو الديزج في كلام العجم ، قال : من الخضرة في ألوان الخيل أخضر أحم ، وهو أدنى الخضرة إلى الدهمة ، وأشد الخضرة سوادا غير أقرابه وبطنه وأذنيه مخضرة ، وأنشد (المعروف الأسدي) :

* خضراءُ حَمَّاءُ كلونِ الغَوْهَقِ * [4]

---

(1) البيت من " الطويل " في ديوانه : ٦٨ .

(2) البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ص١٦٠ .

(3) الأبيات من " الرجز " وتنظر في التهذيب ٧ / ١٠٣ ، واللسان ٢ / ١١٨٣ .

(4) البيت من " الرجز " وينظر في تهذيب اللغة ٥ / ٣٨٧ ، واللسان ٢ / ١١٨ .

ومن هذا اللون القريب إلى السواد سميت قبيلة الخُضْرِ . وهي قبيلة عربية، وسميت بذلك لسواد ألوانهم ــ وإياهم عنى الشماخ بقوله:

وحلأّها عن ذي الأراكةِ عَامرٌ

أخُو الخضرِ يرمي حيث تكوى النواحزُ[1]

ومنه قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب :

وأنا الأخضرُ من يعرفُني ؟

أخضرُ الجلدةِ في بيتِ العربْ [2]

يريد : أنا خالص العرب ؛ لأن ألوان العرب السمرة والأدمة ، يقول : أنا في صميمهم وخالصهم . [3]

ــ وعلى هذا فاللفظ في أصل وضعه وضع للدلالة على اللون المعروف ــ وإن كان هذا اللون ليس على درجة واحدة ، وإن كان استعماله غالبا ــ فيما قارب السواد ؛ إذ توصف الخيل بأنها أخضر أحم ، وأخضر أحوى ، وأخضر أدغم ، وأخضر أطحل ، وأخضر أروق [4] إلا أن العرب ــ كغيرهم من سائر الأمم ــ لم يقفوا بالألفاظ عند استعمالها الأول ، حيث يعتري اللفظ تغيير في مدلوله عبر العصور والأزمان ، وعبر استعماله في بيئات متعددة طبقا لعوامل التطور والجمود التي تعتري البيئات على اختلافها .

فاستعمل العرب لفظ (خضر) في مدلولات أخرى ــ غير ما سبق ــ على سبيل المجاز ، منها : الأخضر بمعنى الحسن الطري أو الناعم ، يقال : عيش أخضر : إذا كان غضا طريا ، ومنه ما جاء في الحديث الشريف عن معاوية ، قال:

---

[1] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ١٨٢ ، وتهذيب اللغة ٤٩/٧ .

[2] البيت من " الرمل " وينظر في جمهرة اللغة ٢٠٩/٢ ، واللسان ٢ /١١٨٢ .

[3] ينظر : تهذيب اللغة ٧ / ١٠٣ .

[4] تهذيب اللغة ٧ / ٤٩ (خ ض ر) .

سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " إن هذا المال حلو خضر ، فمن أخذه بحقه بارك الله (عز وجل) فيه[1] ... " الحديث .

ومعنى (حلو خضر) : غض طري كما ذكر ابن سلام.[2]

ـ كما استعمل هذا اللفظ في معنى(الجديد)قال ذو الرمة

أتـــرابُ مَـــيٍّ والوِصَـــالُ أخـــضرُ

ولـــم يغيـــر أصـــلَه المغيَّـــرُ[3]

هذا ، وقد أرجع ابن فارس المعاني السابقة جميعها إلى أصل واحد مستقيم ومحمول عليه وهو اللون المعروف القريب من السواد ، لأن كل ما خالف البياض هو في حيز السواد ؛ ولذلك تداخلت الصفات .[4]

فالأخضر صفة لكل من اتصف بهذا اللون المعروف : إنساناً كان كصاحب موسى أو حيواناً كالخيل ، أو زرعًا ونباتًا أو غير ذلك .

أما ابن الأنباري فقد أرجع هذه المعاني السابقة إلى معنيين سلبًا وإيجابًا ، أو مدحًا وذمًا كغيره من الألوان ؛ إذ يقول: "للخضرة في كلام العرب معنيان : أحدهما : يكون مدحًا ، والآخر يكون ذمًا ، فإن كان مدحًا فمعناه كثرة الخصب ، وسعة العطاء ، من قولهم : أباد الله خضراءهم ، أي : خصبهم ، وإذ ذم فقيل : هو أخضر ، فمعناه : لئيم ، والخضرة عندهم اللؤم ، قال جرير:

كَسَا القومُ تَيمًا خضرةً في جلودِها

فويلٌ لتيمٍ من سرابيلِها الخضرِ[5]

---

(1) مسند الإمام ٩٨/٤ (حديث رقم ١٦٩٤٩) ، وغريب الحديث لأبى عبيد ٢/ ٢٨٠ ، ٢٨١

(2) غريب الحديث ٢ / ٢٨١ .

(3) البيتان من " الرجز " وينظران في ديوانه : ٣١٥ ، والتهذيب ٧ / ٥٠ .

(4) مقاييس اللغة ٢ / ١٩٥ (خ ض ر) .

(5) البيت من " الطويل" ، وينظر في ديوانه ١١٢،وغريب الحديث للخطابي ٣٧٢/٢.

ويقال : فلان أخضر القفا ، يريدون : ولدته أم سوداء[1]

وعلى هذا فليس هذا اللون قاصرًا في استعماله على الناحية الإيجابية فحسب كما ذكر أحد الباحثين المحدثين [2] بل هذا هو الغالب ، وإلا فقد وظفه الشعراء في الجانب السلبي أيضًا كما سبق لكن هذا الاستعمال السلبي يعد قليلا بل نادرًا.

وإذا كانت الألوان قد تختلف النظرة إليها إيجابًا وسلبًا ، كالأخضر والأزرق مثلا ، وقد مر بنا أن القرآن الكريم قد يوظف اللون الواحد في الجانبي الإيجابي أحيانًا ، وفي الجانب السلبي أحيانًا أخرى ، فإن القرآن الكريم قد وظف اللون الأخضر في الجانبي الإيجابي في الدنيا وفي الآخرة .

ففي (الدنيا) ــ مثلا ــ وص،ف الله النبات النضر المستقبل للحياة بأنه (خضر) نما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ... ﴾[3] الآية .

ومن سعادة النفس التأمل في إبداع الخالق عندما تكتسي الأرض بالخضرة بعد نزول الغيث : ﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[4] كما كنى القرآن الكريم بهذا اللون عن الحياة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ . [5]

وفي الرؤيا التي قصها الملك على نبي الله يوسف (عليه السلام) كانت السنابل الخضر ترمز إلى حياة الدعة والراحة والخير العميم ، على عكس اليابسات التي كانت ترمز إلى القحط والجفاف ، وشظف العيش .

---

[1] غريب الحديث للخطابي ٢ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

[2] الألوان ودلالتها : ٦٨ .

[3] سورة الأنعام : من الآية ٩٩ .

[4] سورة الحج : من الآية ٦٣ .

[5] سورة يس : من الآية ٨٠ .

أما في (الآخرة) فيتجلى جمال هذا اللون ــ كما سيأتي ــ في لباس أهل الجنة ، ووسائدهم ، وفرشهم ، قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾[1] وقوله : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾[2] وقوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[3] كل ذلك لما يضفيه اللون الأخضر من بهجة وسعادة على النفس .

هذا ، وقد ورد ذكر (اللون الأخضر) في القرآن الكريم ثماني مرات ، في سبعة مواضع[4] ، وصفا للنبات ، والثياب ، والبسط ، وهو بذلك يعد أكثر الألوان ورودًا ، إذا عرفنا أن اللون الأبيض ــ كما سبق ــ من المحايدات ، فهو ليس لونًا بل مزيج الألوان جميعًا ، وكذلك الأسود الذي يعد درجة من الأبيض.

وفي الصفحات القادمة سأتناول ــ بمشيئة الله تعالى ــ هذه الآيات الكريمة بالدراسة مبينا ما يرمز إليه هذا اللون من دلالات ، وأثره في سيكلوجية الإنسان .

* ــ قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[5]

من الجدير بالذكر أنه كثر ــ في الذكر الحكيم ــ ورود ولفت الانتباه ، وإثارة الأذهان إلى بديع صنعه ــ تعالى ــ في خلق النبات ؛ ليكون أداة لتقرير

---

(1) سورة الكهف : من الآية ٣١ .

(2) سورة الإنسان : من الآية ٢١ .

(3) سورة الرحمن : الآية ٧٦ .

(4) الأنعام : ٩٩ ، ويوسف : ٤٣ ، ٤٦ ، والكهف : ٣١ ، والحج : ٦٣ ، ويس: ٨٠ ، والرحمن : ٧٦ ، والإنسان : ٢١ على الترتيب . ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : ٢٣٤ .

(5) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

تفرده ــ سبحانه ــ بالوحدانية ولما يتميز به ــ تعالى ــ من صنع بديع ، وتدبير محكم ، وقدرة متفردة من ذلك ــ غير الآية موضع الدراسة ــ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ...﴾[1] الآية . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا[2] ... ﴾ الآية .

الآية الكريمة ــ موضع الدراسة ــ نوع من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، ووجوه إحسانه إلى خلقه،كما أنها من دلائل نعمه البالغة، وإحساناته الكاملة ، والكلام إذا كان دليلًا من بعض الوجوه ، وكان إنعامًا وإحسانًا من سائر الوجوه ، كان تأثيره في القلب عظيمًا . [3]

والسياق القرآني يعرضها ــ كما هي في صفحة الكون ــ ويلفت النظر إليها في شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ، وشتى أنواعها ، لتلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ، ودلالة على القدرة التي تبدع الحياة ، كما توجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال . [4]

هذا ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى جميع مراحل الإنبات بدءًا من نزول الماء حتى مرحلة النضج المفضي إلى الأكل منه ، كما انفردت ــ دون الآيتين الأخرين سابقة الذكر ــ بتفصيل مظاهر الإنبات ، حيث شمل الإشارة إلى جميعها ؛ وذلك ملائمة للسياق والغرض المراد منها ، وهو تقرير غاية بعينها تمثلت في تذييل الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وكونها تفصيلا للإجمالي

---

[1] سورة الأنعام : من الآية ١٤١ .

[2] سورة النمل : من الآية ٦٠ .

[3] مفاتيح الغيب ٦ / ٤٦٤ ، والبحر المحيط ٤ / ١٨٨ .

[4] في ظلال القرآن : ١١٦٠ .

الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ [1] ، وملائمة أيضا – للسمت العام للسورة ، ما غلب عليها من الدعوة والتأمل . [2]

ولما كان الغرض من الآية إبراز بديع صنعه – سبحانه وتعالى – في هذا الخلق ، وتفصيل مظاهر الإنبات لاءم ذلك الإشارة إلى بعض المراحل التي تسبق عملية إخراج النبت ، وهي مرحلة إنزال المطر ، لما فيه من أهمية بالغة من تحقيق الغرض المراد

وجاء التعبير عن المطر بـ(الماء) ملائم لمقام الإنبات ؛ لما يستلزمه من معنى الزيادة والنماء . وعبر عن (السحاب) بـ(السماء) مراعاة لإبراز كثرته . [3]

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ اختلف المفسرون فيه فمن قائل أن المراد به : كل ما ينبت وينمو من الحبوب ، والفواكه ، والبقول ، والحشائش ، والشجر. [4]

وقال الطبري : " نبات كل شيء " جميع ما ينمو من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وغير ذلك ؛ لأن ذلك كله ينمو ويتغذى بنزول المطر من السماء . [5]

والرأي الأول أظهر ؛ لأن الآية الكريمة اقتصرت على تفصيل أحوال النبات دون أدنى إشارة إلى أحوال الحيوان ، والمعادن ؛ لذلك قال أبو حيان : " والظاهر أن المعنى بـ"نبات كل شيء" ما يسمى نباتا في اللغة ، وهو ما ينمو من الحبوب ، والفواكه ، والبقول .. " ومن ثم حسن إطلاق العموم .

---

[1] سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .

[2] متشابه البناء التركيبي لمظاهر الطبيعة في القرآن الكريم : ١٠٨١ .

[3] البحر المحيط ٤ / ١٨١ .

[4] المحرر الوحيز ٦ / ١١٨ ، والتحرير والتنوير ٨ / ٣٩٩ .

[5] تفسير الطبري ٥٧٣/١١ ، والمحرر الوجيز ٦ / ١١٧ ، والبحر المحيط ١٨٨/٤ .

وعلى الوجهين السابقين تكون الإضافة راجعة ــ في المعنى ــ إلى إضافة ما يشبه الصفة إلى الموصوف ؛ إذ يصير المعنى: فأخرجنا به كل شيء ينبت . [١]

أما قوله ــ تعالى ــ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُّتَرَاكِبًا ﴾ فهو شروع في تفصيل ما أجمل من الإخراج ، وقد بدأ بتفصيل حال النجم ، وإيثار لفظ (الإخراج) ــ هنا ــ (فأخرجنا) ملائم ؛ لما تستلزمه من إفادة معنى (التنوع) الذي يتلاقى مع تفصيل مظاهر الإنبات تفصيلا يشمل جميع أنواعها ، كما يتلاقى ــ بما يستلزمه من دلالة على الظهور التام ــ مع إرادة التأمل والتدبر لتلك المظاهر ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ . [٢]

وقوله تعالى : ﴿ خَضِرًا ﴾ بمعنى أخضر ، كما قال الأخفش ، والليث بن المظفر ، والزجاج وغيرهم [٣] ، ومع اتفاقهما في المعنى ، إلا أن ﴿ خَضِرًا ﴾ أرق ظلًا ، وأعمق ألفة من لفظ : (أخضر) ، وقد أتى تنكير الكلمة في موضعه ؛ ليشير إلى عظمة ذلك ، وجليل أثره . [٤]

وأكثر ما يستعمل الأخضر فيما تكون خضرته خلقية ، وأصل الخضرة لون بين البياض والسواد ، وهو إلى السواد أقرب ــ كما سبق ــ ، ولذلك يسمى الأخضر أسود وبالعكس ، ومنه سواد العراق ؛ لخضرة أرضه . [٥]

والمعنى : فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئا غضًا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الجنة. [٦]

---

[١] البحر المحيط ٤ / ١٨٩ .

[٢] متشابه البناء التركيبي : ١٠٨٣ .

[٣] معاني القرآن ٣ / ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، وتهذيب اللغة ٧ / ٩٩ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٢ / ٣٠٢ .

[٤] في ظلال القرآن : ١١٦١ .

[٥] تهذيب اللغة ٧ / ١٣٠ ، والدر المصون ٥ / ٦٩ .

[٦] روح المعاني ٧ / ٢٣٨ .

وجاء التعبير بقوله : ﴿ حَبًا مُتَرَاكِبًا ﴾ دون (متلاحقا) مثلا ، لكونه أظهر في إبراز دقيق الصنع ، فهو في تراصه مستقل بذاته كل في موضعه ، ومن بديع صنعه ــ سبحانه وتعالى ــ أن خلق فوق السنبلة ــ وهي بعض أنواعه ــ أجسامًا دقيقة حادة كأنها الإبر، والمقصود من ذلك منع الطيور من التقاط ذلك الحب المتراكم . [1]

ولا ننس ــ هنا ــ الموافقة التصويرية بين قوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ و ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًا ﴾ ثم قوله : ﴿ مُّتَرَاكِبًا ﴾ بعد ذلك ، بعد أن تهيأ الحس بالتكرار المتوالي للفظ (الإخراج) ؛ لاستقبال شيء (متراكب) بعضه وراء بعض ، أو فوق بعض . [2]

ولما ذكر الحق ــ سبحانه ــ ما ينبت من (الحب) أتبعه ما ينبت من (النوى) فقال : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وهذا يدل على أن النخل أكثر فائدة من غيره بعد الزرع، قال الرازي : " وإنما قدم الزرع على الشجر ؛ لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ؛ لأن التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة للعرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة في خواص كثيرة ، بحيث لا توجد المشابهة في سائر أنواع النبات".[3]

ثم ذكر (العنب) عقيب (النخل) لأنه أشرف أنواع الفواكه ؛ لأن أول ما يظهر منه يصير منتفعًا به إلى آخر الحال، كالانتفاع به في التداوي ، والطبخ ، والشرب ، والتفكه إلى غير ذلك . [4]

---

[1] مفاتيح الغيب ٦ / ٤٦٧ .

[2] منهج الفن الإسلامي / للأستاذ محمد قطب : ١٤٦ ، ١٤٧ .

[3] مفاتيح الغيب ٦ / ٤٦٩ .

[4] السابق ٦ / ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

وقوله : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ تنويع في اللفظين المتشابهين ، وهو أمر مقصود ــ هنا ــ للتنويع بكل وسائل التنويع ، وهو يستعرض أنواعًا مختلفة من الحياة في صفحة الكون ؛ ليلفتنا الحق (جل وعلا) إلى كمال القدرة التي تخلق كل هذه الأنواع ، وتنسق بين تعدد النماذج والأنماط في المشهد ، وفي التعبير عنه سواء . (١)

وقد أوثر التركيز على الاستدلال بهاتين الشجرتين (الزيتون والرمان) ــــ وإن لم تكونا كالنخل في الأهمية عند العرب ــ لعزة وجودهما في بلاد العرب من جهة ، ولاتخاذهما وسيلة للتفكه ، والإعجاب باقتنائهما ذكرًا في مقام التذكير بعجيب صنعه ــ سبحانه ــ من جهة أخرى . (٢)

والملاحظ ــ هنا ــ أن هذه الأشياء التي استعرضتها الآية الكريمة ــ وهي : النبات ، والخضر ، والحب ، والنخل ، والزيتون ، والرمان ، تشتهي وتؤكل ، ولكن الحق لم يقل ، كما قال في موضع آخر : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ (٣) ولكن قال: ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعه في مجال الحياة(٤) أي : انظروا نظر اعتبار واستبصار ، والنظر : رؤية العين، ولذلك عداه بـ (إلى) ليترتب عليه الفكر والاعتبار، والاستبصار والاستدلال على قدرة باهرة تنقله من حال إلى حال. (٥)

---

(١) في ظلال القرآن : ١١٦١ ، والرسم بالألوان : ١٧٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٣٩٨ .

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١٤١ .

(٤) في ظلال القرآن : ١١٦١ .

(٥) الدر المصون ٥ / ٨٠ ، وروح المعاني ٧ / ٢٤٠ .

ونبه على حالتي الابتداء ــ وقت ابتداء الإثمار ــ والانتهاء وهو وقت نضجه ــ وإن كان بينهما أحوال يقع بها الاعتبار والاستبصار ؛ لأنهما أغرب في الوقوع ، وأظهر في الاستدلال.[1]

ولأن هذه الأزهار والثمار تتولد أول حدوثها على صفات مخصوصة ، وعند تمامها وكمالها لا تبقى على حالتها الأولى ، بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة ، مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة. وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة ، وربما كانت في أول الأمر باردة ــ بحسب الطبيعة ــ فتصير في آخر الأمر حارة بحسب الطبيعة . [2]

ولما نبه الحق ــ سبحانه وتعالى ــ على ما في هذا الوجه اللطيف من الدلالة ، ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح القلب ، وينير البصيرة ، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة إلى الإيمان بالله خالق الوجود ، وإلا فإن هناك قلوبًا مغلقة وبصائر مطموسة ، وفطرًا منتكسة تمر بهذا الإبداع كله ، وبهذه الآيات كلها ، فلا تحس ولا تستجيب : " إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ " [3] وإنما يدرك هذه الآيات الذي يؤمنون . [4]

* ــ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ .

---

[1] البحر المحيط ٤ / ١٩١ .

[2] مفاتيح الغيب ٦ / ٤٧٢ .

[3] سورة الأنعام : من الآية ٣٦ .

[4] مفاتيح الغيب ٦ / ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، وفي ظلال القرآن : ١١٦١ .

وقال تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . (١)

هذه الرؤيا من ملك مصر (الريان بن الوليد) مما قدر الله أنها كانت سببًا في لخروج يوسف (عليه السلام) من السجن معززًا مكرمًا ، بل وكانت سببًا ي توليه الوزارة مكان الذي اشتراه من مصر ، كما كانت سببا في إصلاح ملك مصر على يدي يوسف عليه السلام . (٢)

وسماه القرآن الكريم ــ هنا ــ ملكًا ولم يسمه فرعون ؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكًا لمصر أيام حكمها الهكسوس وهم العمالقة ، وهم من الكنعانيين أو العرب ، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة أو البدو ، فالتعبير عنه بـ(الملك) في القرآن دون التعبير بفرعون ، من دقائق الإعجاز العلمي للقرآن الكريم . (٣)

وعَبَرَ الرؤيا : فسرها بجميع ما دلت عليه ، فالبقرات لسنين الزراعة ؛ لأن البقرة تتخذ للإثمار ، والسمن رمز للخصب والعجف رمز للقط ، والسنبلات رمز للأقوات ، فالسنبلات الخضر رمز للطعام ينتفع به ، وكونها سبعًا رمز للانتفاع به في السبع سنين ، فكل سنبلة رمز لطعام سنة .

والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر ، وكونها سبعًا رمز لادخارها في سبع سنين ؛ لأن البقرات العجاف أكلة البقرات السمان ، وتأويل ذلك : أن سنى الجدب أتت على كل ما أثمرته سنو الخصب (٤) ، فالكلام ــ هنا ــ يشتمل على تمثيل

---

(١) سورة يوسف : الآيتان ٤٣ ، ٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٨٠ ، وفي ظلال القرآن : ١٩٩٣ .

(٣) روح المعاني ١٢ / ٢٨٠ .

(٤) الدر المصون ٦ / ٥٣ ، والكشاف ٢ / ٣٦٩ ، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٥ / ٣١٠ ، ٣١١ .

لطيف ، كأن السنين سباع ضارية تكر على الناس لافتراسهم وأكلهم ، فيقدمون إليها كل ما ادخروه عندهم من طعام فتأكله وتنصرف عنهم . [1]

ثم جاء قوله تعالى ــ في نهاية تفسير الرؤيا ــ : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[2] بشارة بشرهم بها يوسف (عليه السلام) بعد أن أول البقرات السمان ، والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة ، وانبلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة . ولعله علم ذلك بالوحي ، أو بأن انتهاء الجدب بالخصب،أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم . [3]

هذا ، والآيات الكريمات دعوة صريحة يفرض بها القرآن على الإنسان أن يزرع بعناية ورعاية ودأب حتى يجني ثمره هذا الجهد الشاق إنتاجًا وخيرا غزيرًا وأن يحاول جاهدًا توفير ما يفيض على الحاجة ؛ لمواجهة الظروف الطارئة التي قد تحيط بالإنسان في المستقبل ، ويحتاج فيها إلى الاستهلاك فلا يجد إلا ما سبق أن ادخره . [4]

وما يعنينا ــ هنا ــ هو أن اللون الأخضر في الآيتين الكريمتين يرمز إلى الخير والرخاء ، والسرور والسعادة ، والنمو والخصوبة والنضارة ، والأمل والحياة ، كما يعني الصحة والعافية والقوة ، كما يعني الغنى والثراء ، فهو العلاج الشافي المعافي من المرض والضعف والفقر والحاجة ، في مقابل اليابس الذي يعني الجدب ، والعقم ، والأفول واليأس ، والموت . [5]

---

[1] الميزان في تفسير القرآن / للطباطبائي ١١ / ١٩٣ .

[2] سورة يوسف : الآية ٤٩ .

[3] تفسير البيضاوي ١ / ٢٦٥ .

[4] الرسم بالألوان : ١٨٤ .

[5] السابق : المصدر والصفحة ، والألوان ودلالاتها في القرآن : ٦٨ .

* ــ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ . (١)

لما ذكر الحق (سبحانه وتعالى) مكان أهل الكفر وهو النار (٢) ، ذكر مكان أهل الإيمان ، وهي جنات عدن . ولما ذكر هناك ما يغاثون به ــ وهو الماء كالمهل ــ ذكر ما خص به أهل الجنة من كون الأنهار تجري من تحتهم ، وما أنعم عليهم من التحلية واللباس اللذين هما زينة ظاهرة . (٣)

ولباس أهل الدنيا : إما التحلي ، وإما التستر . أما التحلي فقال تعالى في صفته : "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ" وهذه التحلية من الله ــ تعالى ــ أو من الملائكة ، وقال بعضهم : على كل منهم ثلاثة أسورة ، سوار من ذهب ؛ لأجل هذه الآية ، وآخر من الفضة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾(٤) وسوار من لؤلؤ ، لقوله تعالى : ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٥) أما لباس التستر فقوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ . (٦)

وقال الزمخشري : " وجمع بين السندس ــ وهو ما رق من الديباج ، قال الكسائي ــ والاستبرق ــ وهو الغليظ ، قال عكرمة ــ جمعًا بين نوعين ، وقدمت

---

(١) سورة الكهف : الآية ٣٠ ، ٣١ .

(٢) في قوله تعالى : " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ... " الآية : الكهف : ٢٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٤١٢٦ ، والبحر المحيط ، والنهر الماد ٦ /١٢١ .

(٤) سورة الإنسان : من الآية ٢١ .

(٥) سورة فاطر : من الآية ٣٣ .

(٦) مفاتيح الغيب ١٠ / ٢٠٦ ، وفتح القدير ٣ / ٢٨٣ .

التحلية على اللباس ؛ لأن الحلي في النفس أعظم ، وإلى القلب أحب ، وفي القيمة أغلى ، وفي العين أحلى " . [١]

ووصف الثياب بالخضرة ؛ لأنها أحسن الألوان ، والنفس تنبسط لها أكثر من غيرها [٢] ، فذكر الحق ــ سبحانه ــ للأخضر لونًا لأهل الجنة جاء موافقًا لميل النفس إليه في الدنيا ، ذلك أن الأبيض يفرق البصر ؛ ولهذا لا يقدر الإنسان على إدامة النظر في الأرض عند كونها مستورة بالثلج ، وأنه يورث الجهر ، والنظر إلى الأشياء السود بجمع البصر ؛ ولهذا كره الإنسان النظر إليه ، وإلى الأشياء الحمر كالدم ، والأخضر لما اجتمع فيه الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض،وحصل اللون الممتزج من الأشياء التي في بدن الإنسان ، وهي : الأحمر ، والأبيض ، والأصفر ، والأسود . [٣]

هذا وقد جاء وصف لباس أهل الجنة في آية أخرى فقال تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ . [٤]

الرفرف : ثياب خضر تتخذ منها المحابس ــ جمع محبس : وهو ستر الفراش ــ الواحدة رفرفة . وقال ابن عباس : " فضول الفرش والبسط " وقال الليث : " ضرب من الثياب الخضر ينبسط " وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف، قال ابن مقبل :

وإنَّــا لنزَّالــونَ تَغْــشَى نِعَالُنَــا

سواقطَ مــن أصــنافِ رَيْــطٍ ورفــرفِ[٥]

---

[١] الكشاف ٢ / ٥٦٣ ، والجامع لأحكام القرآن ٥ / ٤١٢٧ .

[٢] ينظر : البحر المحيط ، والنهر الماد ٦ / ١٢١ .

[٣] ينظر : القرطبي ٤١٢٧/٥ ، والبيضاوي ٦/٢ ، والألوان دلالتها في القرآن : ٦٩ .

[٤] سورة الرحمن : آية ٧٦ .

[٥] البيت من "الطويل " وينظر في ديوانه : ٨٦ ، وتهذيب اللغة ١٥ / ١٧٠ .

وهذه الأقوال متقاربة .[1]

وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فقال : " هي بسط أهل الجنة لا أبا لكم فاطلبوها . وقال زيد بن أسلم : " العبقري : أحمر ، وأصفر ، وأخضر".[2]

وذكر الرازي أن عبقر موضع تزعم العرب أنه أرض الجنة ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته " .[3]

وقال الرازي : " إذا قلنا : إن الرفرف هي البسط،فما الفائدة في الخضر ، حيث وصف الله تعالى ــ ثياب أهل الجنة بكونها خضرا ، قال تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ﴾ ؟ نقول : لما كان ميل الناس إلى اللون الأخضر في الدنيا أكثر ، ذكر الله ــ تعالى ــ في الآخرة ما هو على مقتضى طبعهم في الدنيا .[4]

على أن ثياب أهل الجنة ذات ألوان عديدة ، وهذا ما يمكن استنتاجه من قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ... ﴾ ولكن الله ــ تعالى ــ اختار اللون الأخضر لكي يعلوها جميعًا ؛ إذ هو أجمل الألوان وأبدعها ، فمنه المطفي الذي لا لمعة له أو انعكاس ، ومنه الاستبرق ذو البريق واللمعان ، وهو تأكيد لما ورد في آية الكهف : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالألوان جميعها مذكورة إجمالًا في قوله تعالى: (عبقري حسان) لكنه اختص الأخضر منها بالذكر لفضله .

---

[1] ينظر : تهذيب اللغة ١٥ / ١٧٠ ، والقرطبي ٩ / ٦٥٩٠ ، ٦٥٩١ .

[2] مفاتيح الغيب ١٥ / ٢٣٣ ، والبحر المحيط ١٩٩/٨ ، وابن كثير ٢٨٠/٤ .

[3] مختار الصحاح : ٤٠٩ .

[4] مفاتيح الغيب ١٥ / ٢٢٤ .

هذا ، وقد أثبتت الدراسات المعاصرة أن اللون الأخضر لون مبهج سار للنفوس البشرية ، له تأثيرات طبية على نفوس المتلقين تفوق تأثيرات الألوان الأخرى ، وأن الألوان جميعها أدوات للزينة والجمال .

كما أثبتت الدراسات أيضا أن اللون الأخضر ـ في الطبيعة حولنا ـ ليس غذاء فقط بل هو كساء أيضا ، فقد ثبت أن كثيرا من الطحالب التي تعيش في المحيطات ـ يمكن أن تستخلص منها مواد خاصة تعرف بـ(الجينات) صالحة لصناعة الغزل والمنسوجات . [1]

وما كان القرآن الكريم يشير إليها في هذين الموضعين خاصة ـ وفي مواضع أخرى كثيرة متفرقة ـ إلا بسبب أن لها دلالات ومعاني واضحة في نفوس وألباب جمهور المتلقين ، وهذا يعني أن الألوان وتأثيراتها معروفة منذ القدم ، وقبل نزول القرآن الكريم بسنين طويلة ، وهو ما يؤكد إعجازه ، وإخباره بعلم ما سبق ، وعلم ما سيأتي . [2]

* ـ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ . [3]

لما دل الحق (سبحانه وتعالى) على قدرته في الآية السابقة بما ذكره من ولوج الليل في النهار ، والعكس [4] وهما أمران مشاهدان مجيء الظلمة والنور ، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمه ، أولها قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ فنزول المطر ، وإنبات الأرض

---

[1] الرسم بالألوان : ١٨٧ ، ١٨٨ .

[2] السابق : ١٩٧ ، ١٩٨ .

[3] سورة الحج : آية ٦٣ .

[4] في قوله تعالى : " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ.." الآية : ٦١ .

واخضرارها مشاهدان من العالم العلوي والعالم السفلي ، ونسبة الإنزال إلى الله ـ تعالى ـ مدرك بالعقل . [1]

قال الرازي : " الماء وإن كان مرئيا إلا أن كون الله منزله من السماء غير المرئي ؛ لأن المقصود من الرؤية هو العلم ؛ لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل " . [2]

أما (الفاء) فهي على بابها في أصح الأقوال من الترتيب والتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه ، قال أبو حيان : "والظاهر تعقب اخضرار الأرض إنزال المطر ، وذلك موجود بمكة وتهامة فقط ، قال عكرمة : " وأخذ ﴿ تُصبِحُ ﴾ على حقيقتها ، أي : تصبح من ليلة المطر ، وذهب إلى أن الاخضرار في غير مكة وتهامة يتأخر " . [3]

قال ابن عطية : " وشاهدت هذا في السوس الأقصى ، نزل المطر ليلًا بعد قحط فأصبحت تلك الأرض الرملة ـ التي تسفها الرياح ـ قد اخضرت بنبات ضعيف "[4] وخص (تصبح) دون سائر أوقات النهار ؛ لأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبلج ، وأسر للمرئي " . [5]

والعدول عن الماضي إلى المضارع ؛ لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان ، كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرًا له ، ولو قلت : فرحت وغدوت لم تقع ذلك الموقع ، أو لاستحضار الصورة البديعة . [6]

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب ٣١٧/١١ ، والبحر ٦ / ٣٨٥ ، وابن كثير ٣ / ٢٣٣ .

[2] مفاتيح الغيب ٣١٧/١١ ، والبحر ٣٨٥/٦ .

[3] البحر ٦ / ٣٨٦ ، والدر المصون ٨ / ٣٠١ .

[4] المحرر الوجيز ١١ / ٢١٦ .

[5] البحر ٦ / ٣٨٧ ، وروح المعاني ١٧ / ١٩١ .

[6] ينظر الكشاف ٣ / ١٣٢ ، ومفاتيح الغيب ١١ / ٣١٧ ، وروح المعاني ١٩١/١٧ .

فالأرض تصبح خضراء عندما ينزل عليها الغيث ، فتعمها البهجة ، وتعود إليها الحياة ، وبجانب ما يشي به هذا اللون من النضارة والحياة ، فهو ممتع جدًا للأبصار ، ويدخل على النفس البهجة والراحة ؛ ولذا فإن من يعانون من القلق والاكتئاب ، ينصحون بالجلوس في الساحات الخضراء ، والتأمل في هذا المنظر الجميل الخلاب ، يروى في الأثر : أن الخضرة تزيد في ضوء البصر، وقد قيل : ثلاثة يذهبن الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن "[1]، ويذكر الجاحظ أن : " الأكره (الحراث الذي يحرث الأرض) ، وسكان البساتين ، أقل خفشانا (ضعفا البصر) وعميانا ، وعمشانا (ضعفا لرؤية العين من سيلان ومعها). [2]

ومن اللافت للنظر أن نزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح ظاهرة واقعة مكررة ، تذهب الألفة بجدتها في النفوس . أما حين يتفتح الحس فإن هذا في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس ، يقول سيد قطب : " إن القلب ليحس ــ أحيانا ــ أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين بخضرته ونضارته أطفال صغار تبتسم في غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، فكاد من فرحتها بالنور تطير ، والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب : " إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " من لطف ، وعمق ، ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد ".[3]

فالآية الكريمة تلفت أنظارنا إلى أن النبات يحس ويعي ويسمع ، وهو ما أثبتته الدراسات المادية التجريبية للنبات ، التي تقوم على القياس والرصد والتسجيل والحصر ، وتعمد على التجارب العلمية والأجهزة المعملية ، يقول

---

[1] روح المعاني ١٧ / ١٦٢ .

[2] الحيوان ٣ / ٣٥٣ .

[3] في ظلال القرآن : ٢٤٤٠ .

الدكتور أحمد رأفت: "ثبت أن النبات يسمع ويعي، ويبصر ويشعر ويحس، ويتحدث، ويرمي حديثه إلى غيره من النبت فيسمع ويستجيب ".[١]

كما تلفت الآية الكريمة أنظارنا ــ أيضا ــ إلى اللون الأخضر الذي يكسو الأرض بعد يباسها ومحوها ، ولو أننا تأملنا في جميل صنع الله ، وجليل حكمته لرأينا أنه إذا ازداد ــ في جزء من النبات ــ اللون المغاير للأخضر ــ كما في الجزر والبنجر ــ فإن هذا الجزر يكون مختفيا في الأرض ، بعيدا عن نظر الإنسان ؛ ليكون فوق الأرض هو اللون الأخضر ، كما في عروش الجزر والبنجر مفروشة خضراء كباقي نباتات الأرض ، وبذلك فإن اللون الأخضر هو اللون الشائع والمنتشر والسائد في الحقول والبساتين طول حياة الإنسان . [٢]

من ذلك كله يتبين لنا أن الحق (سبحانه وتعالى) لم يخلق شيئا عبثًا ، فكل شيء عنده بمقدار وحساب .

* ــ وقال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ . [٣]

الآية الكريمة تقرر ما تقدم من دفع استبعاد المنكرين للبعث بعد الموت ، وتدل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، أي: أن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضد النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، فهو القادر على إخراج الضد من الضد . [٤]

وقال أبو حيان : " ذكر الله (تعالى) ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة ، وهو إبراز الشيء من ضده ؛ وذلك أبدع شيء ، وهو اقتداح النار من

---

[١] الرسم بالألوان : ١٨٩ .

[٢] السابق : ١٩١ .

[٣] سورة يس : ٨٠ .

[٤] ينظر : القرطبي ٨ / ٥٦٩٨ ، والرازي ١٣ / ١٨٣ ، وفتح القدير ٤/٣٨٣ .

الشيء الخضر ، ألا ترى أن الماء يطفئ النار ، ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء".[1]

والمشاهدة الأولية الساذجة ـ كما يقول سيد قطب ـ تقنع بصدق هذه العجيبة ! العجيبة التي يمرون عليها غافلين ،عجيبة أن الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد نارًا ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونة والاخضرار .

والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة، والتي تولد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق ، هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزًا في الحس ووضوحًا .[2]

والمعروف أن الأعراب كانت توري النار من الشجر الأخضر ، وأكثرها من (المرخ والعفار) وهما شجرتان تنبتان في أرض الحجاز ، ويسوي من أغصانهما الزناد ، فيقتدح بهما ، وزنادهما أسرع الزناد وَرْيًا ، ومَنْ قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر ـ مع وجود الماء المضاد للنار ـ قادر على إعادة البعث بعد الموت ، عن ابن عباس قال : " ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب " ومن أمثالهم : " لكل شجر نار ، واستنجد المرخ والعفار " .[3]

والطريف ـ كما يقول الدكتور أحمد رأفت ـ أن لون النار الناتجة من الشجر الأخضر أو من الحطب اليابس يكون دائما أحمر ، وأن هذا اللون الأحمر هو

---

[1] البحر المحيط ، والنهر الماد ٧ / ٣٤٨ .

[2] في ظلال القرآن : ٢٩٧٧ .

[3] ينظر : مفاتيح الغيب ١٣ / ١٨٣ ، والبحر المحيط ٧ / ٣٤٨ . ولم أجد المثل في مجمع الأمثال ، ولا المستقصي في الأمثال . (والعفار : شجر خوار جيد للزناد ، وللعفار الزند الأعلى . أما المرخ فهو شجر يتفرع ويطول ، وللمرخ الزند الأسفل ، وأما (الزند) فغصنان مثل السواكين ، يؤخذان وهما يقطران ماء ، فيحتك أحدهما بالآخر ، فيخرج منهما النار .

اللون المضاد للون الأخضر والمتمم له في الوقت ذاته ، فهل هي إشارة من القرآن الكريم لذلك ؟ ... والله (سبحانه وتعالى) يقول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ . [1]

فهل يعني اندلاع النار من الشجر الأخضر أن اللون الأخضر لا يوحي دائما بالراحة والاطمئنان والسعادة ، وأنه يمكن أن يكون حاويًا في طياته لما هو مفزع ومقلق وتعس ؟! والجواب ــ بصفة عامة ــ أن لكل ما في الوجود وجهان: طيب وخبيث ، وكل ما في الوجود يحمل في طياته الكثير من المتناقضات ، الشيء وضده ، لكن الانطباع يأخذ من الصفة الغالبة ، والحكم في النهاية يكون على قاعدة . أما الشذوذ عن القاعدة فلا يؤخذ به . [2]

فاللون الأخضر ــ هنا ــ وإن كان مفزعا من جهة ، فإنه من جهة أخرى لون اليخضور (الكلورفيل) دم النبات الذي من دونه لا تتم عملية التمثيل الضوئي مما يعني موت النبات وفناءه ، فهو رمز الحياة ، قال الطاهر بن عاشور ــ في تفسير هذه الآية ــ : "ليس المراد من (الأخضر) اللون ، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة ؛ لأن الشجر أخضر اللون مادام حيا ، فإذا جف ، وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة ، فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته، قال ذو الرمة :

ولما تنمتْ تأكلُ الرِّمَّ لم تَدَعْ

ذوابلَ مما يجمعون ولا خُضْرَا[3]

كما أنه لا يمكن أن نغفل أثر اللون هنا،فلو لم يوصف الشجر بأنه (الأخضر) لما وضحت الصورة الجمالية ، فالأخضر ينبثق منه نار معروفة

---

[1] الرسم بالألوان : ١٩٣ ، والآية من سورة الأنعام : ٣٨ .

[2] السابق : ١٩٣ ، ١٩٦ .

[3] التحرير والتنوير ٢٧٩/٢٢ ، والبيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ٤١٣/١.

ألوانها، فإذا جاء العلم الحديث ليرى أن اللفظ (الاخضرار) إشارة إلى مادة (الكلورفيل) اللازمة لتمثيل غاز أكسيد الكربون ، فقد جمعت الآية فائدة عقلية أساسها العلم ، ومتعة جمالية يدركها البدوي ، والرحل العادي .

ومن جهة أخرى فإن استعمال كلمة (من) و(الأخضر) في الآية الكريمة يلفت النظر إلى الفارقة العجيبة المتمثلة في أن الله يجعل لنا المادة المساعدة على الاشتعال (الأوكسجين) من خضرة الشجر ، غير القابلة للاشتعال إذا تعرضت للضوء ، ومدى الأثر النفسي المقصود من هذا التعبير الواضح .[1]

مما سبق من دراسة اللون الأخضر في القرآن الكريم ، ولغة العرب يمكن أن نستخلص ما يأتي :

- أن اللون الأخضر هو أحد الألوان الأساسية التي يتكون منها جميع الألوان الضوئية الموجود في الوجود ، وأن الإنسان قد عرفه منذ عرف الألوان ، وقد رمز به للنمو والخصوبة والنضارة ، والأمل والهدوء والسكينة . في مقابل اليابس الذي يعني عكس ذلك .
- أن اللون الأخضر لون مريح للبصر ، يقتل البكتيريا والجراثيم ، ويسكن الألم ، ويقاوم الإنهاك والشعور بالتعب ، وأن اللون الفاتح منه يعمل على تنشيط الغدد ، وتخليص الجسم من السموم والفضلات ، وأن اللون الأخضر ــ أيضا ــ قد ثبت أنه من أهم الألوان التي تعالج أمراض الصدمات العصبية .
- أن هذا اللون قد استعمله العرب في الجانب الإيجابي غالبا ، والسلبي نادرًا ، لكن القرآن الكريم قد استعمله في الجانب الإيجابي فقط في الدنيا والآخرة ــ كما مر ذكره ــ لذلك كان هذا اللون محببًا عند المسلمين ، وعند رسول الله (ﷺ) .
- أن اللون في النبات هو اليخضور (الكلورفيل) الذي يقوم بعملية البناء الضوئي فهو سر حياة النبات ، وصانع ثماره واستمراره .

---

[1] دراسات لغوية في القرآن : ١١٥ .

المبحث الثالث

اللون الأزرق

اللون الأزرق أحد الألوان الأساسية التي يتكون منها جميع الألوان الموجودة ، سواء الضوئية منها ، أو تلك التي يستخدمها الرسامون الملونون ، أو المشتغلون بالصباغة ، وهو ثاني الألوان التي عرفها الإنسان الأول ، واستخدمه في زخارفه ؛ لذا كان يطلق عليه ثاني الأسماء في التاريخ . (١)

واللون الأزرق هو اللون الغالب في ألوان السماء والماء، وهو لون طبقات الهواء المتكاثفة حول الكرة الأرضية ؛ لذا فهو لون شفاف منعش ، يشعر بالخفة ، حالم ، قادر على تحقيق أجواء خيالية،يشعر بالسلام،ويوحي بالتأمل (٢)، وهو من الألوان المهدئة للعين والنفس ، استعمله العرب في الوشم ، وهو رمز الصداقة والحكمة والخلود . (٣)

ونظرًا لارتياح العين لهذا اللون واستحسانها له فقد جعله الله لونا للسماء حتى يكثر الإنسان من النظر إليها ، والتأمل لما أودعه الله فيها من حكم عالية ، وقدره غالبة ، وأجرام متفاوتة، يقول الإمام الرازي : " تفكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له ، حتى إن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله ــ تعالى ــ أديم السماء ملونا بهذا اللون الأزرق ، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها ، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ جعل لونها أنفع الألوان ، وهو المستنير، وشكلها

(١) الرسم بالألوان : ٢٠٣ ، والألوان في القرآن : ٢٨ .

(٢) في سبيل موسوعة علمية للدكتور : أحمد زكي : ٣٩٨ .

(٣) الألوان في القرآن : ٢٨ .

أفضل الأشكال وهو المستدير ولهذا قال :﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ . [1]

اللون الأزرق واستعماله في لغة العرب :

الأصل فى هذا اللفظ أنه يستعمل فى اللون المعروف ، وفى كل ما تصف به كوادي الأزرق بالغرب من مكة ، وزرقاء اليمامة وغيرهما .

ومما استعمل فيه لفظ (الأزرق) أنه قد جاء بمعنى : ماء فى طريق حاج الشام ودون اليمامة ، والأزراق : ماء بالبادية ، قال عدي بن الرقاع :

حتى وردنَ من الأزراقِ مَنهلًا ∴ ولهن من وضح النهار أصيل [2]

والزُّرْقُ بالضم : النصال : سميت للونها ، وقيل : لصفائها ، قال امرؤ القيس:

ليقتلُني والمشرفيُّ مضاجعي ∴ ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ [3]

والزرق : رمال بالدهناء ، قال ذو الرمة :

وقرَّبْنَ بالزُّرقِ الحمائلِ بعدما ∴ تَقَوَّبَ عن غِرْبانِ أوراكِها الخَطْرَ [4]

والزرقاء : موضع بالشام بناحية معان ، وقال أبو عمرو : الزرقاء : الخمر، والزرقاء : فرس نافع بن عبد العزي عن ابن عباد .

وزرقاء اليمامة : امرأة من جديس ، وكانت تبصر الشئ من مسيرة ثلاثة أيام ، وفى المثل : " أبصر من زرقاء اليمامة " [5] ، وقيل : اليمامة اسمها ، وبها سمي البلد . [6]

---

[1] مفاتيح الغيب :١/ ٤٩٩ .

[2] البيت من " البسيط " وينظر فى ديوانه ١٣٩ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ١ / ١٦٧ .

[3] البيت من " الطويل " فى ديوانه ٣٣ .

[4] البيت من " الطويل " فى ديوانه ١ / ٥٦٦ .

[5] مجمع الأمثال للميداني ١ / ٢٠٠ .

[6] ينظر : الصحاح ٤ / ١٤٤٩ ، واللسان ٣ / ١٨٢٧ ، ١٨٢٨ ، وتاج العروس (زرق) .

ومن درجات هذا اللون (الكحلي) وهو فى الأصل قد وضع لمن يضع الكحل، ثم استعمل فى الألوان للدلالة على اللون الأزرق الضارب إلى السواد ، وهي دلالة مولدة . [١]

ومن درجاته (الفَيْرُوزَجُ) وهو فى الأصل قد وضع للدلالة على حجر كريم غير شفاف ، معروف بلونه الأزرق كلون السماء ، أو أميل إلى الخضرة يتحلى به (معرب) ويقال : لون فيروزي إلى الخضرة قليلًا [٢] ، وأجوده الأزرق من الصافي اللون ومنه قول سبط التعاويذ :

هذا يغض من اللُّجَيْنِ بَيَاضُهُ .·. وتتيه زرقته على الفيروزَج[٣]

ومن درجاته ــ أيضًا ــ (الأسْمَنْجُونُ) : وهو اللون الأزرق الخفيف ، والنسبة إليه أسمنجوني (دخيل) [٤] ، وهو مع الأدكن من أنفع الألوان للبصر ، وذلك أنهما يجمعان البصر بلا عنف ولا استكراه ــ بخلاف الأسود ــ فإنه يضر بالبصر ؛ لأنه يجمع بعنف واستكراه ، وأضر منه الأبيض ؛ وذلك لأنه يبدد تبديدًا شديدًا . [٥]

وهما مركبان من السواد والبياض ، فلا يفرقان البصر كالأبيض ، ولا يجمعانه جمعًا عنيفًا مستكرهًا كالأسود ، وهذا ما دام العضو صحيحًا ، أما إذا كان العين قد ضعفها ضوء الشمس ونحوه فالأسود جيد لها؛لأن شفاء الضد بالضد.[٦]

---

[١] المعجم الوسيط ١ / ٨٠٩ (ك ح ل) .

[٢] السابق : ٧٣٤ .

[٣] البيت من : ، وينظر فى ديوانه : ٣٩ .

[٤] المعجم الوسيط ١ / ١٩ .

[٥] الحاوي فى الطب ، لأبى بكر الرازي ١ / ٢٢٩ .

[٦] الحاوي فى الطب ، لأبى بكر الرازي ١ / ٣٢٧ .

ما سبق يتضح أن العرب قد عرفوا هذا اللون كسائر شعوب الأرض ، واستخدموه في مجالات متعددة ، كالأدب والشعر ، وفي وصف البشرة والعيون ، والسماء والأرض ، والنبات ، فمن ذلك ــ غير ما سبق ــ قول زهير :

فلما وردن الماءَ زُرْقًا جِمَامُهُ ∴ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ[1]

وقد علق أبو عمرو بن العلاء ــ على هذا البيت ــ فقال: " لم يقل في صفة الماء أحسن من هذا " . [2]

ومع هذا كله ، فاللون الأزرق لون مكروه عند بعض الشعوب ــ ومنهم العرب ــ وبخاصة اللون الأزرق المائل إلى البياض ؛ لذلك صوروا به آلهة الجحيم في اليونان القديمة كما أن العين الزرقاء ــ عند الفئات الشعبية في الوقت الحالي ــ علامة على الضرر والهلاك ، ولكون اللون الأزرق لون الدم الفاسد المتعكر قد شبهوا به يوم الهم والغم في قولهم : نهار أزرق ، وكله غم . [3]

وبهذا المعنى الأخير ورد هذا اللون بصيغة الجمع مرة واحدة في القرآن الكريم وصفا للمجرمين يوم القيامة ، فكأنهم إذ صوروا أنفسهم أعزة كرامًا نجدهم وقد صبغوا بالخسة والنذالة في قول الله (عز وجل) : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ . [4]

---

[1] البيت من " الطويل " من معلقته ، وينظر في : ديوانه : ١٠٥ ، وتهذيب اللغة ٦٠٨/٧ ، ٤٢٩/٨ (زرق) وإعجاز القرآن للباقلاني : ٧٦ .

[2] شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها . جمع وتصحيح الشيخ/ أحمد الشنقيطي : ١١٤ .

[3] الرسم بالألوان : ٢٠٦ .

[4] سورة طه : الآيات ١٠٠ ــ ١٠٢ .

والمعنى : ويحشر الله (عز وجل) المجرمين حال كونهم زرق الأبدان ، وذلك غاية في التشويه ، ولا تزرق الأبدان إلا من مكابدة الشدائد ، وجفوف رطوبتها . [١]

وقيل : زرق العيون ، والزرق خلاف الكحل ، والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه ، أي : تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم .

وقال ابن عباس (رضي الله تعالى عنهما) : " زرق العيون : هو وصف للشيء بصفة جزئه (مجازًا مرسلًا) كما يقال : غلام أكحل ، وأحول ، والكحل والحول من صفات العين . [٢]

وقال ابن كثير : " قيل : معناه : زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال " . [٣]

والزرق في علم الرمد : صلابة حدقة العين من فرط التوتر الداخلي . [٤]

وقد ثبت علميًا أن سواد العين يتغير ، ويزرق من شدة العطش ، ويصل إلى درجة البياض من شدة الكدر والحزن ، هذا في الدنيا الفانية ، فما بالك بالآخرة الباقية ، الذي تقشعر فيه الأبدان ، وتشيب فيه الألوان ، وتذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت . [٥]

وقيل : " زُرْقًا " أي : عميًا [٦] ؛ لأن العين إذا ذهب بصرها أزرق ناظرها ، وزرقة العيون أسوأ ألوانها ، والروم كانوا أعدى أعداء العرب ، وهم زرق العيون ، فوصفوا بوصف مبغض من حيث اللون ، سيء من حيث ذهاب البصر ؛ ولذلك

---

[١] روح المعاني للألوسي ١٦ / ٢٦٠ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٤٤١٨ ، ولسان العرب ٣ / ١٨٢٨ (زرق) .

[٣] تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٥ .

[٤] المعجم الوسيط ١ / ٤٠٧ (زرق) .

[٥] الرسم بالألوان : ٢٠٨ ، وينظر في ظلال القرآن : ٢٣٥٢ .

[٦] معاني القرآن للفراء ٢ / ١٩١ ، والجامع لأحكام القرآن ٦ / ٢٤١٨ .

قالوا ــ في وصف العدو ــ : " أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين " فهو أبلغ من عميًا [١] ، ولذلك قال الشماخ يرثي عمر بن الخطاب :

وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتهُ ∴ بكفى سَبَنْتَى أزرقَ العينِ مُطْرِقُ[٢]

وسئل ابن عباس (رضي الله تعالى عنهما) عن الجمع بين "زرقا " على ما روى عنه ــ و(عميا) في آية أخرى ، وهي قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًا ﴾ [٣] فقال : " ليوم القيامة حالات ، فحالة يكونون فيها زرقًا ، وحالة يكونون فيها عميًا " . وقيل " عميا" يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ، ويعمون في المحشر . [٤]

وقيل : " زرقًا " أي : عطاشا [٥] ، قال الأزهري : "عطاشا قد أزرقت عيونهم من شدة العطش " [٦] ، وقال الزجاج:" لأن سواد العين يتغير ، ويزرق من العطش" . [٧]

والمعنى العام للآية ــ على هذه التفسيرات ــ : أن المجرمين ــ عياذًا بالله ــ يحشرون يوم القيامة زرق الوجوه ، أو الأجسام ، أو العيون ، أو عميًا من شدة الرعب والهول من الرهبة ، ومن الرهبة الفظيعة المخيمة على ساحة المحشر ، فهو مشهد خوف وضيق ، بسبب زرقة اللون مما يحملون وزر يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلًا﴾ . [٨]

---

[١] ينظر : البحر المحيط ٦ / ٢٧٨ ، وروح المعاني ١٦ / ٢٢٠ .

[٢] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ٤٤٩ ، (زرق) والسبنتى : النمر ، ومطرق : ذليل .

[٣] سورة الإسراء : ٩٧ .

[٤] القرطبي ٦ / ٢٤١٨ ، والبحر ٦ / ٢٨٧ ، وروح المعاني ٦ / ٢٦٠ ، ٢٦١ .

[٥] لسان العرب ٣ / ١٨٢٧ (زرق) عن ثعلب .

[٦] تهذيب اللغة ٨ / ٤٢٨ (زرق) والبحر ٦ / ٢٧٨ .

[٧] معاني القرآن وإعرابه ٣ / ٣٧٦ .

[٨] سورة طه : آية ١٠١ .

وللون الأزرق ــ كما نرى ــ دور أساسي في هذه الصورة الرهيبة التي تصف حال المجرمين في يوم القيامة [1] . وهذا اللون في هذه الآية الكريمة يدل على أن هذه الأجسام لا تبلغ الموت أو الحياة ، فالمعروف أن لون الدم هو الأحمر،وعندما يتحول إلى الأزرق فهو يعني احتباس الأوكسجين الشديد وفساده ، وهو أصدق تعبير عن الحشر . [2]

وخلاصة القول عن اللون الأزرق ــ في ضوء الآية الكريمة الوحيدة التي ذكر فيها ــ هو أنه رغم أن اللون الأزرق ما كسا شيئا في الطبيعة إلا زانه ــ غالبًا ــ ، كما في السماء الصافية ، والماء الرائق ، والزهور البديعة ، وأسماك الزينة ، والطيور .. إلخ فإن القرآن الكريم أراد أن يلفت نظرنا للوجه الآخر للون الأزرق غير المنظور بوضوح ، وأن يبين لنا كيف أن الأزرق قادر على التعبير عن أقسى درجات الرعب والفزع التي يمكن أن تواجه البشر ، فاكتساء (عيون ، أو وجوه ، أو أجسام المجرمين) أو هي جميعًا يوم الفزع الأكبر بهذا اللون لتعبير معجز بإيجاز شديد ، وفي كلمة واحدة " زرقًا " عاش المتلقي الموقف والمشهد كاملًا غير منقوص ، إنه إعجاز ، وأي إعجاز . [3]

---

[1] في ظلال القرآن : ٢٣٥٢ ، ودراسات لغوية في القرآن ١٢٥ .

[2] دلالة الألوان في اللغة العربية ، من موقع المنتدى التربوي التابع لسلطنة عمان ــ وزارة التربية والتعليم ، مقالة / لمجدي حلبص (انترنيت) .

[3] الرسم بالألوان ٢١٧ ، والألوان في القرآن / لأحمد بن ناصر الرازحي (انترنيت)

المبحث الرابع

(اللون الأصفر)

اللون الأصفر : هو أحد الألوان الأساسية ، ويتميز هذا اللون بأنه أكثر الألوان وضوحًا حين تجمعها تحت ضوء واحد ، وأنه يحمل في طياته الكثير من المتناقضات ، فهو رمز للشمس مصدر الضياء والنور ، وهو في الوقت نفسه قد يكون رمزًا للغش والخداع ، وربما كانت الأمثلة الدارجة بين الناس (ضحكة صفراء ، أو أصفر الوجه) مشتقة من تلك المعاني . [1]

واللون الأصفر ــ أيضًا ــ يرمز للذهب ، ذلك المعدن النفيس الذي يعني الثراء والعظمة والقوة ، وفي الوقت نفسه لو اصطبغ وجه الإنسان به ، فهذا يعني الضعف والمرض . [2]

هذا ، والذين يفضلون اللون الأصفر ــ كما يقول الدكتور : أحمد زكي ــ أحد شخصين على طرفي نقيض:إما أن يكون شخصًا يتمتع بمقدرة ذهنية كبيرة ، أو أن يكون متخلفًا عقليًا . [3]

وقد عرف العرب الكثير من الألوان ــ كما سبق ــ ومنها الأصفر ، وعبروا عنها وبها في فنهم ، وأدبهم ، منذ العصر الجاهلي ، يقول عنترة :

زَارَ الربيعُ رياضَنا وزَهَا بها ∴ فنباتُها حَلِيَتْ بأنواعِ الحلي

يَزْهُو بأحمرَ كالعقيقِ وأصفرَ ∴ كالزعفرانِ ، وأبيضَ كالسَّنْجَلِ

وبنفسج يزهو إذا عاينته ∴ آثار نقش في ذراع ممتلي[4]

---

[1] دلالة الألوان في اللغة العربية / مجدي حلبص (انترنيت) .

[2] دلالة الألوان في اللغة العربية (انترنيت) ، والرسم بالألوان : ١٤٩، ودراسات لغوية في القرآن الكريم (الألوان) : ١٢١ .

[3] في سبيل موسوعة علمية : ٣٩٩ .

[4] سبق تخريجها في :٨١٧من البحث.

وجاء في معلقته :

بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسرةٍ ∴ قُرِنَتْ بأزهرَ في الشمالِ مقدمِ[1]

كما عرف العرب ـ أيضًا ـ تأثير الألوان ـ ومنها الأصفر ـ على النفس البشرية ، يقول أبو حيان : " وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة ، ولهذا كان على (كرم الله وجهه) يرغب في النعال الصفر . وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) : " الصفرة تبسط النفس ، وتذهب الهم ، وكان أيضا يحض على لبس النعال الصفر " [2] . وقال الإمام علي : " من لبس نعلي جلد أصفر قل همه " لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾[3] . وعن اللون الأصفر بصفة عامة ـ وكونه باعثًا على السرور ـ قال ابن جرير الطبري : " من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور مادام لابسها " . [4]

اللون الأصفر واستعماله عند العرب :

الأصفر : لفظ عربي فصيح مستعمل في الدلالة على اللون المعروف ، يقابله في الفارسية (زرد) ، قال الزبيدي: "وزردة: جبل بشيراز كأنه سمى بذلك؛ لصفرة لونه ، فإن (زرد) بالفارسية هو اللون الأصفر " . [5]

وقد استعمل هذا اللفظ وما اشتق منه (اصفرَّ يصفرُّ اصفرارًا) فيما كان فعله لازمًا ، و(اصفيرارًا) فيما كان عرضًا يعرض للإنسان ، يقول الزبيدي : "

---

[1] البيت من الكامل وينظر في أشعار عنترة : ٢٧ .

[2] البحر المحيط ١ / ٢٥٣ .

[3] سورة البقرة : من الآية ٦٩ ، والقرطبي ١ / ٤٨٧.

[4] جامع البيان عن تأويل آي القرآن / له ٢ / ١٩٩ .

[5] تاج العروس ٢/ ٣٦٣ (زرد) .

الصفرة بالضم من الألوان معروفة ، تكون في الحيوان ، والنبات ، وغير ذلك مما يقابلها ، وحكاها ابن الأعرابي في الماء أيضًا " . [1]

وهذا اللون يكون بين السواد والبياض ، وهو إلى البياض أقرب ، وتطلق الصفرة على السواد أيضًا ، فهو ضد ، قال الفراء ــ في قوله تعالى ــ : ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ [2] ــ : "الصفر : سود الإبل ، لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة ؛ لذلك سمت العرب سود الإبل صفرًا ، وقال أبو عبيد: الأصفر : الأسود " . [3]

ولما كان الأصفر تارة إلى البياض أقرب ، وأخرى إلى السواد أقرب جاز وصفه بما ذكره أبو عبيدة : معمر بن المثنى ــ في أوصاف الخيل ــ حيث قال : " ومن الصفرة أصفر أعفر ، وأصفر فاقع ، وأصفر ناصع . فأما الأصفر الأعفر فهو الأصفر الجنبين والعنق ، وتعلو سراته وعنقه ومتنه وعجزه عفرة ، وجنباه ونحره وجرانه ومرفقه ووجهه أصفر ، وناصيته وعرفه وذنبه أسود فيه صهبة .

وأما الأصفر الناصع فهو أصفر السراة تعلو متنه جده غباء ، وهو أصفر الجنبين والمراق ، وتعلو وظيفيْه غبة ، وشعر ناصيته وعرفه وذنبه أسود غير حالك " . [4]

ثم استعمل اللفظ عَلَمًا على كل من اتصف بهذا اللون ، فيقال للروم أو لملوكم : بنو الأصفر ؛ لصفرة ألوانهم ، فبنو الأصفر : لقب الروم من سكان آسيا الصغرى والقسطنطينية وما إليها [5] ، قال عدي بن زيد :

---

[1] السابق ٣/ ٣٣٥ (ص ف ر) .

[2] سورة المرسلات : آية ٣٣ .

[3] معاني القرآن ٣ / ٢٢٥ .

[4] الخيل ١ / ٢٧ .

[5] بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٦٠ ، والمعجم الوسيط ٥٣٦/١ .

وبَنُو الأصفرِ الكرام ملوكُ الرومِ ∴ لـن يبقـى مـنهمُ مَـأثورُ[1]

وقال عبد الجبار بن عديس :

بنِو الأصفرِ اصفرَّتْ حِذارًا وجُوهُهم

فأيدِيهم من كل ما طلبوا صِفْرُ[2]

وقد ورد ذكرهم في الحديث النبوي الشريف ، عـن عـوف ابـن مالـك الأشجعي ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو في خدر له ، فقلت : أدخلُ ، فقال : ادخـلْ ، قلت : أكلِّى ، قال : كُلكُ ، فلما جلست قال : أمسك ستًا تكون قبل الساعة ، أولهن: وفاة نبيكم ، ثم فتح بيت المقدس ، وفتنة تدخل بيت كل شعر ومدر ، وأن يفـيض المال فيكم حتى يعطي الرجل مائة دينار فيتسخطها ، وموتان يكـون فـي النـاس كعقاص الغنم ، وهدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون بكم ، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا " . [3]

كذا أطلق الأصفر على الذهب للونه ، ومنه قول علي (كرم الله وجهه) : " يا صفراء اصفري ، ويا بيضاء ابيضي وغرى غيري " يريد : الـذهب والفـضة ، ويقال : ما لفلان صفراء ولا بيضاء ، أي : لا ذهب ولا فضة ، ومنه حديث ثوبان ــ مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " زويت لـي الأرض حتـى رأيـت مشارقها ومغاربها ، وأعطيت الكنزين الأصفر والأحمر والأبيض (يعني : الـذهب والفضة) وقيل لي : إن ملكك حيث زوى لك " . [4]

هذا ، ولم يقتصر استعمال هذا اللفظ في اللون المعروف ، أو فيما اتـصف به مما سبق ، وإنما استعمل ــ أيضا ــ في الدلالة على الجـرادة إذا خلـت مـن البيض قال حماد عجرد :

---

[1] البيت من " الخفيف " وينظر في العين ٧/ ١١٤ ، واللسان ٤ / ٢٤٦١ (ص ف ر) .

[2] البيت من " الطويل " وينظر في : تاج العروس ٣/ ٣٣٥ (ص ف ر) .

[3] مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦ / ٢٧ (حديث رقم ٢٤٠٢٢) .

[4] سنن ابن ماجه ٢ / ١٣٠٤ (حديث رقم ٣٩٥٢) .

فما صفراءُ تُكنـــى أم عـــوفٍ ∴ كأن رُجَيْلَتَيْهَـــا مِـــنْجَلانِ ؟[1]

وأنشد ابن دريد :

كأن جرادةً صـــفراءَ طـــارتْ ∴ بأحلامِ الغواضـــرِ أجمعينَـــا[2]

والصفراء نبت سهلي ــ بضم السين منسوب إلى السهل ــ رملي ، وقـــد سميت بالجلد ، وقال أبو حنيفة : " نبت من العشب تسطح علـــى الأرض ، ورقـــه كالخس وهي تأكلها الإبل أكلًا شديدًا ، وقال أبو نصر : هي من الذكور .

والصفراء ــ أيضًا ــ واد بين الحرمين الشريفين وراء بـــدر ممـــا يلـــي المدينة المشرفة ، ذو نخل كثير ، والصفراء : القوس من الشجر . [3]

هذا ، وقد ورد ذكر اللون (الأصفر) في القرآن الكريم خمس مرات فـــي خمس آيات [4] ، رسمت لنا خمس لوحات بالألوان غلب عليها اللون الأصفر بكل ما يحمله من صنات الثراء والإثارة والتناقض ، وما يدخله على النفس من سرور وفزع ، وما يعبر عن الاكتمال والبهاء والنضارة والغنى ، وعن الضعف والمرض الذي يسبق الموت والفناء . [5]

وسأتناول ــ بإذن الله تعالى ــ فيما يأتي هذه الآيات بالدراسة ؛ لنقف على سر التعبير القرآني وجماله من ناحية ، وما يوحيه هذا اللون في النفـــوس مـــن ناحية أخرى .

---

[1] البيت من " الكامل " ، وينظر في اللسان ٤ / ٢٤٦٠ ، والتاج ٣/ ٣٣٥.

[2] البيت من الوافر ، وينظر في الجمهرة ٢/ ٣٣٥ ، والتاج ٣/ ٣٣٥ .

[3] ينظر : تهذيب اللغة ١٢/ ١٧٠، واللسان ٢٤٦١/٤ ، والتاج ٣ /٣٣٥ (ص ف ر) .

[4] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٤٠٩ وهي على الترتيب : البقـــرة : ٦٩ ، والـــروم : ٥١ ، والزمر : ٢١ ، والحديد : ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة المرسلات .

[5] ينظر : دلالة الألوان في اللغة العربية (انترنيت) ، والرسم بالألوان : ١٥١ .

قال الله ــ تعالى ــ حكاية عن قوم موسى مع البقرة المراد ذبحها: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ . (١)

الصفرة من الألوان معروفة ، تكون في الحيوان ، والنبات وغير ذلك مما يقبلها ، وحكاه ابن الأعرابي في الماء أيضًا . والصفرة ــ أيضًا ــ السواد في الإبل،وقد اصفر واصفار ، وهو أصفر ، والأصفران : الذهب والزعفران ، وقيل : الورس والذهب ، ومنه قولهم : " أهلك الناس الأصفران " الذهب والزعفران ، ويقال : الورس والذهب . (٢)

واللون الأصفر ــ كما سبق ــ أكثر الألوان وضوحًا ، ويتصف به أحد شخصين : إما أن يكون شخصًا يتمتع بمقدرة ذهنية كبيرة ، وإما أن يكون متخلفًا ذهنيًا .

وفي ضوء هاتين المقولتين نستطيع أن ننظر إلى قوم موسى الذين أمرهم الله بأن يذبحوا بقرة ، ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .

فرغم أن اللون الأصفر من الألوان التي تستطيع العين أن تقع عليه، ورغم أن البقرة : " فاقع لونها " فإنهم قالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . (٣)

مراء وجدال أعان على ظهوره ــ في القوم ــ لون من الألوان ذكرته الآية الكريمة (٤) ، يقول ابن كثير : " لو أن القوم ــ حين أمروا بذبح بقرة ــ استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله

(١) البقرة : آية رقم : ٦٩ .

(٢) المحكم ٨ / ٣٠٥ ، واللسان ٤ / ٢٤٥٨ (ص ف ر) .

(٣) البقرة : ٧٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٧٧/١ ، ودراسات في القرآن الكريم (الألوان) ١٢١ ، ١٢٢

عليهم ".[1] ولولا أن القوم استثنوا فقالوا : " وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ " لما هدوا إليها أبدًا . [2]

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال جمهور المفسرين : هو اللون المعروف ؛ ولذلك أكده بالفقوع والسرور ، فهي صفراء حتى القرن والظلف ، ولم يكتف بقوله : (صفراء فاقعة) لأنه أراد تأكيد نسبة الصفرة فحكم عليها أنها صفراء ، ثم حكم على اللون أنه شديد الصفرة ، فابتدأ أولًا بوصف البقرة ، ثم أكد ذلك بوصف اللون بها ، فكأنه قال: هي صفراء ، ولونها شديد الصفرة . [3]

وقال الزمخشري : " فإن قلت : فهلا قيل : صفراء فاقعة؟ وأي فائدة في ذكر اللون ؟ قلت : الفائدة فيه التوكيد ؛ لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل : شديد الصفرة صفرتها ، فهو من قولك : جَدَّ جَدُّه ، وجنونُك جنونٌ " . [4]

ومن الجدير بالذكر أن هذا الوصف للبقرة يعد من الاستعمالات الشاذة ؛ لأن (الصفرة) تأتي في الحيوان وصفًا للإبل الذكور ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾[5] وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة ، ولو أراد السواد لما أكده بالفقوع ، وذلك نعت مختص بالصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ، تقول العرب: " أسودُ حالك ، ودَوْدَجِيٌّ ، وغِربيبٌ ، وأحمرُ قانئٌ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولَهَاقٌ

---

[1] تفسير القرآن العظيم ١١١/١ ، وينظر مفاتيح الغيب للرازي ١٦٢/٢ ، عن ابن عباس .

[2] تفسير القرآن العظيم ١ / ١١١ .

[3] البحر المحيط ١ / ٢٥٢ .

[4] الكشاف ١ / ١١٢ ، والبحر المحيط ١ / ٢٥٣ .

[5] المرسلات : ٣٣ .

ويَقِقٌ ، وأخضرُ ناضرٌ، وأصفرُ فاقعٌ " هكذا نص نقلة اللغة عن العرب [1] ، وقال لبيد ــ في الأصفر الفاقع ــ :

سُدُمٌ قديم عهدُه بأنيسُه ∴ من بين أصفرَ فاقعٍ ودِفَانِ[2]

وقوله ــ تعالى ــ : (فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) يريد : خالصا لونها ، لا لون فيها سوى لون جلدها ، قال وهب بن منبه : " إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وقال الكسائي:"يقال : فقع لونها يفقع فقوعًا : إذا خلصت صفرته" [3] وقال الزمخشري : " الفقوع:أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه " . [4]

ولذلك فقد رفض المفسرون أن يفهم قول الله تعالى : " فَاقِعٌ لَّوْنُهَا " بمعنى : تسود من صفرتها ، وجعلوه قولا غريبًا ، لا يستعمل إلا مجازًا في الإبل ؛ وذلك لأن السود من الإبل سوادها صفرة ، ولو أراد الحق ــ سبحانه وتعالى ــ السواد في حديثه لما أكده بالفقوع ؛ لأن الفقوع نعت أو صفة مختص بالصفرة ، ولا يوصف به السواد . [5]

وقال الشوكاني : " والمراد بالصفرة ــ هنا ــ الصفرة المعروفة ، وروى عن الحسن أن (صفراء) معناه : سوداء ، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها ، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود ــ الذي هو أقبح الألوان ــ أنه يسر الناظرين؟! وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعلم كل من يعرف لغة العرب ــ أنه

---

[1] ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ومفاتيح الغيب ١٦٦/٢ ، والصحاح ١٢٥٩/٣ ، واللسان ٥ / ٣٤٤٨ (ف ق ع) .

[2] البيت من " الكامل " وينظر : في ديوانه :٢٠٧ ، واللسان ٥ / ٣٤٤٨ .

[3] الكشاف ١ / ١١٢ ، وفتح القدير للشوكاني ١ / ٩٨ .

[4] الكشاف ١ / ١١٢ .

[5] القرطبي ٤٨٧/١ ، والبحر ٢٥٣/١ ، والدر المصون للسمين الحلبي ٤٢٥/١ .

لا يجري على الأسود بوجه من الوجوه ، فإنهم يقولون ــ في وصف الأسود ــ : حالك ، وحلكوك ، ودودجى وغربيب " . [١]

وقوله ــ تعالى ــ : " تَسُرُّ النَّاظِرِينَ " أي : أن هذه البقرة ــ لحسن لونها ــ تسر من نظر إليها ، والسرور:حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد ، أو علم ، أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع ، ومنه السرير الذي يجلس عليه ، إذا كان لأولى النعمة ، وسرير الميت ؛ تشبيهًا به في الصورة ، وتفاؤلًا بذلك . [٢]

وهذا لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة ، فهذا هو الشائع في طباع النفس : أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا . وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا . [٣]

وليس لون البقرة الأصفر لادخال البهجة والسرور على الناظر فحسب ، بل هو دليل على صحة البقرة ، وسلامتها من العيوب ، فقد قررت أصول الطب البيطري أن خير الأبقار وأفضلها ، هو ما كان لونها شديد الصفرة في صفاء (فاقع) ، وأنه على قدر صفاء اللون ، وسلامة الأسنان تكون صحة البقرة. [٤]

ولأن اللون الأصفر لا يعكس هذا الانطباع على كل حال، فهو كغيره من الألوان يختلف بحسب الحال التي يوجد عليها ؛ لذا أسند الفعل في قوله تعالى : " تسر الناظرين " إلى ضمير البقرة لا إلى اللون ، فلا يقتضي أن اللون الأصفر ــ كما قال الطاهر بن عاشور : " مما يسر الناظرين دائمًا " . [٥]

---

[١] فتح القدير ١ / ٩٨ .

[٢] مفاتيح الغيب ٢ / ١٩٧ ، والدر المصون للسمين الحلبي ١/٤٢٥ ، ٤٢٦ .

[٣] في ظلال القرآن ١ / ٧٩ .

[٤] الألوان ودلالتها في القرآن : ٦٩ .

[٥] التحرير والتنوير ١/ ٥٥٣ .

هذا ، وقد أورد المفسرون روايات في بقرة بني إسرائيل التي سميت السورة باسمها [1] ، وما يعنينا ـ هنا ـ أن هذه القصة قد حدثت في العصر الفرعوني ، أي : قبل نزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ بمئات السنين ، وسؤالهم عن لون البقرة (صفراء) ـ وما جاء في الإجابة من تحديد لكنه اللون ، ودرجته ومقدار نقائه وصفائه ، وما يحدثه في نفوس المتلقين من أثر نفسي (تسر الناظرين) ـ يدل دلالة قاطعة على أن معرفتهم بالألوان كانت عظيمة وعميقة ـ مما كان له الأثر الواضح على حياتهم ومعاملاتهم ـ فمن غير المقبول أو المعقول أن يصل الإنسان لكل تلك التفاصيل الدقيقة المبهرة ـ هكذا فجأة ـ دون مقدمات ، بل لابد أن هذه المعرفة كانت منذ زمن أقدم ، أقدم بكثير ، وأنها تطورت شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى هذه النتيجة ، فتلك سنة الحياة . [2]

وهذا ما أثبته العلم الحديث بعد الكشوف الأثرية التي أزيح عنها النقاب في أواخر القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، أي : بعد نزول القرآن الكريم بأربعمائة وألف سنة ، ألا يمكن اعتبار هذا وجهًا يضاف إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لا تعد ولا تحصى . [3]

كما أن الآية الكريمة تعني أن إنسان ذلك العصر قد توصل إلى معرفة الآثار النفسية للألوان على المشاهد ، إضافة إلى ما تضيفه هذه الألوان من حسن وبهاء على الأشكال المرئية ، فطالما أن منها ما يسر الناظرين ، فهناك ـ بالتالي ـ من الألوان ما يؤذي الناظرين ، وهذا ما أثبتته الدراسات والبحوث والتجارب التي تمت في العصر الحديث . [4]

---

[1] تنظر هذه الروايات في تفسير ابن كثير ١ / ١٠٨ ، والقرطبي ١ / ٤٩٠ ، وفي ظلال القرآن : ٧٧ .

[2] الألوان في القرآن : ١٩ .

[3] الرسم بالألوان : ١٥٣ .

[4] الألوان في القرآن : ٢١ .

كما توضح القصة ـ بجلاء ـ ديدن بني إسرائيل في تعنتهم وعنادهم ، ومراجعتهم مرة بعد مرة ، وقد روى عن الحسن ـ مرفوعًا ـ أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم " . (١)

* ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ . (٢)

يحمل اللون الأصفر في طياته ـ كما سبق ـ المعنى وضده حسب توظيفه ، وقد سبق في سورة البقرة ما أثاره هذا اللون من السرور والفرح ، أما في هذه الآية الكريمة : " وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ " فهو يثير الكآبة والحزن والخوف والفزع .

والرياح عبارة عن تيارات هوائية ناشئة من اختلاف طبقات الضغط الجوي علوًا وانخفاضًا ، ومنها الدائم ، والموسمي ، والمحلي ، والإعصاري ، ومنها المفيد بما تثيره السحاب وتحمله حيث يسقط مطرًا ، وتسوق السفن في البحار ـ ومنها أيضًا ـ ريحًا لا خير فيها ، فلا تثير السحاب ولا تسوقه وقد تحجب ـ من كثافتها ـ ضياء الشمس ، وتعصف بالسفن في البحار وتقطع الأشجار . (٣)

والآيات ـ التي بين أيدينا ـ تصور حال القوم الذين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء ، ويستروحون بآثار رحمة الله عند نزوله من السماء ، كما تصور

---

(١) البحر المحيط ١ / ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) الروم : ٤٨ ـ ٥١ .

(٣) الرسم بالألوان : ١٥١ .

حالهم لو كانت الريح التي رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب ، وهي الريح المهلكة للزرع والضرع ، أو التي يصفر منها الزرع فيصير حطامًا ، فيكفرون سخطًا ويأسًا ، بدلًا من أن يستسلموا لقضاء الله ، ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء . [1]

والريح الذي يصفر بالنبات صر حرور ، وهما مما يصبح به النبات هشيمًا ، وقد اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله ــ تعالى ــ : " فَرَأَوْهُ " على النحو التالي :

قيل : هو عائد على ما يفهم من سياق الكلام ، وهو النبات ، أي : قد اصفر وشرع في الفساد .

وقيل : الضمير يعود على (الأثر) لأن الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات ، قاله ابن عباس ، ومن قرأ : " آثار " بالجمع رجع الضمير إلى آثار الرحمة ، وهو النبات ، يقع على القليل والكثير ؛ لأنه مصدر سمي به ما ينبت ، والمعنى : فرأوا الأثر مصفرًا ، واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يبسه .

وقال ابن عيسى : " الضمير في : " فرأوه " عائد على السحاب ؛ لأن السحاب إذا أصفر لم يمطر . وقيل : يعود الضمير على الريح ، بمعنى أنها لا تلقح ، وهذان الرأيان ضعفهما المفسرون . [2]

فاللون الأصفر ــ في الآية الكريمة ــ لون مفرع ، يندر بالخطر والدمار والخراب ، يعكس ذلك تمامًا الذي يسر الناظرين بتأملنا للطبيعة ، وما تحوى من مخلوقات بوجه عام .

---

[1] في ظلال القرآن : ٢٧٧٥ .

[2] ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٥٣٠٢ ، والبحر المحيط ٧ / ١٧٩ ، وتفسير البيضاوي ٢ / ١٠٧ .

فالصفرة ــ هنا ــ ليست فاقعة ولا لامعة ، وإنما هي شاحبة ذابلة ، هي صفرة الموت بعد حياة نضرة . [١]

والمعنى العام : أنه لما بين الله ــ تعالى ــ أن هؤلاء القوم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة ــ أيضًا ــ لا يدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا ، فهم متقلبون غير ثابتين ؛ لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل . [٢]

ومما يدل على أن الصفرة هنا تثير الخوف والفزع أنها جاءت وصفا للريح المفردة ، والريح بالإفراد لفظ يستعمل في ريح الشر والعذاب ، والرياح بالجمع للخير والرحمة وهكذا استعملهما القرآن الكريم ..

* ــ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ . [٣]

من الجدير بالذكر أن نبين أن القرآن الكريم قد اطرد فيه اتخاذ النبات كمظهر طبعي لتصوير فناء الدنيا دون غيره ، على كثرة مظاهر الطبيعة التي تتقلب عليها الأحوال وتتغير ، لأسباب منها :

ــ تكرار هذا المظهر أكثر من غيره في كل زمان ومكان، ومن ثَمَّ يكون التأثير أتم حيث تتبدى حقيقة هذه الدنيا في سرعة إدبارها بعد إقبالها في صورة لا تقبل جحدًا ، فكأن فيه إعطاء المعنى بالدليل والبرهان ، حيث يتدبر المرء في مراحل هذا النبات بعد أن رآه أخضر يانعًا ، ثم يصفر ويذبل ، ثم يصير حطامًا ، وهكذا شأن الحياة الدنيا . [٤]

---

[١] الجامع للقرطبى ٥٣١٢/٧ والبحر المحيط ١٣٩/٧ .

[٢] مفاتيح الغيب ١٢ / ٤٨٩ ـ والبحر المحيط ٧ / ١٧٩ .

[٣] سورة الزمر آية : ٢١ .

[٤] ينظر : في ظلال القرآن : ٣٠٤٧ .

قصر دورة حياته في الغالب ، فهناك أنواع من النبات سرعان ما تزدهر ، وسرعان ما تنتهي حياتها ، وهذا يتلاءم مع حال الدنيا في عدم ثباتها ودوامها .

ــ هلاك النبات قد يحدث فجأة دون سابق تنبيه أو تحذير،وهكذا حال الدنيا حيث تدبر فجأة وتنقلب على صاحبها، ومن ثم تعظم المصيبة ، بخلاف لو أتى التصوير عن هذا المعنى بذكر مراحل دورة القمر ــ مثلا ــ من تدرجه هلالًا ثم بدرًا ، ثم محاقًا ، وذلك لأن دورة القمر معلومة ومحددة ، كما أن نهايته متوقعة ، وهذا لا يتلاءم مع حال الدنيا.

ــ ما يتميز به النبات من تنوع أحواله ، وأنواعه ، فيدخل البهجة على النفس كما هو الحال في وسائل إقبال الدنيا على المرء حيث تقبل عليه بما يسره . [1]

هذا ، وقد سبق القول بأن اللون الأصفر يحمل في مضمونه المتناقضات التي تتراوح بين الخير والشر في آيات الذكر الحكيم والطبيعة من حولنا ، وهذا يعني أمرين :

أولًا : أن القرآن الكريم من عند الله تعالى .

ثانيًا : واحدنيته سبحانه وتعالى ، التي تتمثل في أسلوبه الواضح في خلقه .

ولنتأمل اللون الأصفر : توظيفه ، وما يرمز إليه ، وما يمكن أن نستخلصه من الآية الكريمة .

يقول المفسرون ــ عن سبب نزول هذه الآية : لما ذكر الحق(جل وعلا) الآخرة ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها ، والشوق إليها [2] ، أتبعه بذكر الدنيا

---

[1] متشابه البناء التركيبي لمظاهر الطبيعة في القرآن الكريم (دراسة بلاغية) رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بأسيوط /للباحثة : نهى أحمد محمد عبد الرحمن : ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ .

[2] في قوله تعالى : " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ... " الآيات (الزمر : ١٧ ــ ٢٠) .

، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها ، والنفرة منها ، فذكر تمثيلًا لها في سرعة زوالها ، وقرب اضمحلالها ــ مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرة الله الباهرة ، ووصفه البديع فقال : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ... " الآية . [1]

ومع أن النظم القرآني قد تعلق بالنيات خاصة إلا أنه يلاحظ أنه قد اطرد ذكر ما قبل النبات وهو الماء ، وذلك في قوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[4] وذلك بقصد تصوير الهيئة من مبادئها : " لإظهار مواقع الحسن فيها ؛ لأن ذلك يكسب المشبه به حسنًا " . [5]

كما أن الماء هو السبب الأساس في ازدهار النبات ، وكثرته ، فلزم الإشارة إليه باعتباره المرحلة الأولى التي تبنى عليها المراحل الأخرى ، كما هو الحال في الإنسان ــ مثلا ــ في اعتماد معظم عمره على ما يكسبه في فترة شبابه وصباه ، كما أن الغرض تصوير قصة الحياة كلها من المهد إلى اللحد، فأدخل ! نزول الماء ؛ ليلحق المراحل الأولى للنشأة في المثل . [6]

ثم تجيء الخطوة التالية لإنزال الماء : " فسلكه ينابيع في الأرض " سواء في ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ، أو الأنهار الجارية تحت طباقها مما

---

[1] الكشاف ٤/٩٤ ، والبحر ٧ / ٤٢٢ ، وفتح القدير ٤ / ٢٥٧ .

[2] سورة يونس من الآية : ٢٤ .

[3] سورة الكهف من الآية : ٤٥ .

[4] سورة الزمر من الآية : ٢١ .

[5] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٧ / ٤٠٤ .

[6] في ظلال القرآن : ٣٠٤٧ ، ومتشابه البناء التركيبي لمظاهر الطبيعة في القرآن الكريم ١٠٥٣ .

يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيوناً ، أو ينكشف آبارًا، ويد الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التي لا يظهر منها أبدًا .

ثم تأتي المرحلة الثالثة : " ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه " ـــ فهذه الحياة النباتية التي تعقب تزول الماء ، وتنشأ عنه ـ خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيرًا ، ورؤية النبتة الصغيرة ـ وهي تشق حجاب الأرض عنها ـ كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ، وتثير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

هذا الزرع النامي اللدن الرخص الطري بالحياة ، يبلغ تمامه ، ويستوفى أيامه " ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا " وقد بلغ غايته المقدرة له في ناموس الوجود ، وفي نظام الكون ، وفي مراحل الحياة ، فينضج للحصاد : " ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا " وقد استوفى أجله ، وأدى دوره ، وأنهى دورته كما قدر واهب الحياة : " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ " الذين يتدبرون فيذكرون ، وينتفعون بما وهبهم الله من عقل وإدراك . [1]

ويقول سيد قطب ـ وهو في معرض الحديث عن التناسق الجمالي في عرض الصورة مشهد القرآن ـ : " بعض المشاهد يمر سريعًا خاطفًا ... وبعض المشاهد يطول ... وبعض هذه المشاهد الطويلة حافل بالحركة ، وبعضها شاخص لا يريم ، وكل أولئك يتم تحقيقا لغرض خاص في المشهد يتسق مع الغرض العام للقرآن، ويتم التناسق في الإخراج أبدع التمام " . [2]

وقد مثل (رحمه الله تعالى) للمشهد الطويل الحافل بالحركة الآية الكريمة موضع الدراسة : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ... " الآية . ثم قال ـ موضحا كيف جاء المشهد طويلا حافلًا بالحركة ـ: " هكذا

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب ١٣ / ٤١٧ ، والبحر المحيط ٧ / ٤٢٢ ، وتفسير البيضاوي ٢ / ٥٤ ، وفي ظلال القرآن : ٣٠٤٧ ، ٣٠٤٨ .

[2] التصوير الفني في القرآن الكريم : ٥١٠٧ .

في تراخ " ثم " وفي تمهل وبطئ ، فالماء ينزل فلا يختلط بالأرض ، ولا نبات الأرض ، إنما يسلك ينابيع . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾وفي الوقت فسحة لتملي ألوان الزرع المختلفة الألوان ــ " ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا " وفي الوقت مهلة ــ " ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا " "يجعله! " وهناك : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾[1] أو ﴿ يَكُونُ حُطَامًا﴾[2] كأنما يصبح بنفسه ، أو يكون بلا مصير ولا فاعل ! ، وهنا جعله " حطاما " ثم بقى على هذه الهيئة ، وهناك : ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [3] فلا يبقى له أثر .

إنه ــ هنا ــ في معرض بيان النعم الإلهية ، فبطء عرضها ولبث صورها، وتملى مشاهدها ، أجدر بالموقف ؛ ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل " . [4]

وما يعنينا أن اللون الأصفر ــ هنا ــ يعني المرض بعد الصحة ، والذبول والجفاف بعد الخضرة والنضارة ، والهرم والضعف بعد الشباب والقوة ، كل ذلك إيذانًا باقتراب لحظة الرحيل بالموت بعد الحياة ، يقول الإمام الرازي : " إن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وأنه ــ وإن طال عمره ــ فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون ، متحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت " [5] فالسعيد من كان حاله بعد ذلك إلى خير .

* ــ وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

---

[1] يشير إلى قوله تعالى : " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ... " الآية ٤٥ سورة الكهف .

[2] يشير إلى قوله تعالى : " اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... " الآية ٢٠ سورة الحديد .

[3] آية الكهف .

[4] التصوير الفني في القرآن الكريم : ١١٢ .

[5] مفاتيح الغيب ١٣ / ٤١٨ .

مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ .(١)

شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها ــ مع قلة جدواها ــ بنبات أنبته الغيث ، فاستوى واكتمل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث الله عليهم العاهة ، فهاج واصفر ، وصار حطامًا ؛ عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة ، وصاحب الجنتين .(٢)

وتشبيه حال الدنيا ، وتحقير شأنها بنبات الأرض مطرد في غير آية من الذكر الحكيم ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ .(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .(٤)

كل هذه المواضع جميعها تلاقت في المعنى العام ، وهو تصوير حال الدنيا في إقبالها وسرعة إدبارها وزوالها ، ولذلك فإنها تلاقت في الأسلوب والبناء ، حيث نجد اتفاقها في الجمع بين المرحلة الأولى لهذا النبات ، والمرحلة الأخيرة بدايته ونهايته : " كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ... فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ

---

(١) سورة الحديد : آية ٢٠ .

(٢) الكشاف ٤ / ٣٨١ ، والبحر ٨ / ٢٢٤ ، وتفسير ابن كثير ٤/٣١٣ . والبيضاوي ٢ /

(٣) سورة يونس : من الآية ٢٤ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٤٥ .

" و" كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ... فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ " و" كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا... " . (١)

ومع تلاقي هذه المعاني في المعنى العام ، وفي بناء الأسلوب على التشبيه التمثيلي فإننا ــ مع ذلك ــ نجد فرقا في بناء أسلوبها إيجازا وتفصيلا في عرض مراحل هذا النبات وذلك لاختلاف المقصود من كل منها ، فلما كان المقصود في موضع (يونس) هو توضيح وبيان حال الحياة الدنيا،وذكر مباهجها : "اهتم بشرح خطوات هذه الحياة التي يخطوها في طريق النهاية ، فلم يدع مرحلة من مراحلها إلا نص عليها " . (٢)

ولما كان الغرض في موضع (الكهف) بيان سرعة إدبار الدنيا عقب إقبالها اقتصر على ذكر بداية هذا النبات ونهايته طاويًا تلك المراحل التي بينهما ، ومن ثم كان أقل المواضع تفصيلًا . بخلاف الغرض المراد في موضع (الحديد) حيث كشف عن حقارة هذه الحياة الدنيا ، وقد اقتضى ذلك ذكر مراحل النبات كاملة ، بدءًا من نزول الماء حتى مرحلة الفناء . (٣)

إن عرض المراحل جميعها اقتضى التدرج في ذكر مرحلة الفناء ، ومن دلالة ذلك إيثار حرف العطف " ثم " دون غيرها ، ملائمة لإرادة التدرج في الانتقال بين مراحل النبات ، بخلاف العطف بـ(الفاء) في موضع الكهف ــ وتلاؤمًا مع مقام الإعجاب ، حيث جاء الحرف الذي يفيد التراخي : " ليعكس صورة الدنيا في أعماق اللاهث بها ، فيطيل زمن إعجاب الكفار بنباتهم ، رمزًا إلى استغراقهم في ملذات الدنيا ، وغفلتهم عما ورائها ، ويدخل مرة ثانية بين اصفرار النبات وصيرورته حطامًا ، ليرمز إلى طول الأمل ، والتثبت ببقائه ، حتى وهم نهايته في

---

(١) متشابه البناء التركيبي لظاهر الطبيعة في القرآن الكريم : ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ .

(٢) السابق : ١٠٥٤ .

(٣) الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) للدكتور : محمد أبو موسى ١٠٨، وينظر التصوير الفني ١٠٨ ، ١٠٩ والظلال : ٣٤٩١ .

زبوله واضمحلاله ، وكأنهم أرادوا الاستمتاع بالدنيا إلى آخر لحظة فيها ؛ لذلك قابل الله طول الغفلة بمضاعة العذاب : " وفي الآخرة عذاب شديد " فهنا تصوير للحقيقة من خلال أعين الغارقين فيها " . [١]

كما أن إيثار التعبير بقوله : " يَهِيجُ " عن مرحلة ضعف النبات ، لما في هذه من معان وإيحاءات تلاءم هذا المقام ، إذ هي تستلزم (الاضطراب والثوران، والجلبة) ومن ثم سميت الحرب: الهيجاء ؛ لأنها موطن اضطراب وثوران ، وهذا يتناسب مع وصف الدنيا بكونها لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر ، ولما تستلزم تلك المادة ــ أيضًا ــ من معنى القلة والضعف ، من ذلك قولهم: "هاجت الإبل : نقصت قيمتها " [٢] وهو يتلاءم ــ تمامًا ــ مع الغرض المراد من المثل ، وهو تحقير الحياة الدنيا . [٣]

ومن ثم لم ترد هذه الكلمة (يهيج) مادة وبنية إلا في موضعين في القرآن الكريم (الزمر : ٢١ ، والحديد : ٢٠) لملاءمة الهيجان ؛ لإرادة التدرج والتراخي ؛ إذ يعقب الهيجان هدوء يشبه الفناء . [٤]

وملاءمة لإرادة التنفير من هذا الإعجاب نجد جمال العطف بـ(الفاء) في قوله : " ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرًا " عاطفًا رؤيته بحالته تلك عقب هيجانه واصفراره، أعظم دلالة على التهيؤ للزوال ، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الحياة الدنيا . [٥]

---

[١] من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم . للدكتور : محمد أمين الخضري ٢٧١ .

[٢] ينظر : المقاييس : لابن فارس ٦ / ٢٣ ، والمحكم لابن سيده ٤ / ٣٦٧ (هـ ي ج) .

[٣] متشابه البناء التركيبي : ١٠٧٥ .

[٤] السابق : ١٠٧٥.

[٥] التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠٦ .

إذا كان ما سبق شأن الحياة الدنيا ، فإن الآخرة لها شأن آخر ، يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له : " الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانٌ " فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا ، وهي لا تنتهي إلى حطام كالنبات البالغ أجله ، إنها حساب وجزاء ، ودوام يستحق الاهتمام . [1]

ولذلك ختمت الآية بقوله : " وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ " لما في دلالة هذه الكلمة (الغرور) من معنى الخداع والتضليل ؛ إذ الغرور : كل ما يغر الإنسان من مال ، وجاه ، وشهوة ، وشيطان ، وقد فسر بالشيطان ؛ إذ هو أخبث الغاوين في الدنيا ، لذلك قيل : " الدنيا تغر وتضر وتمر " . [2]

* ــ وقال تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ . [3]

الآيات الكريمات تتحدث عن وجه من وجوه تخويف الكفار ، وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة ، فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون ، في تأنيب مرير ، وإيلام عسير : " انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب " إنه ظل لدخان جهنم ، تمتد ألسنته في ثلاث شعب ، ولكنه ظل خير منه الوهج : " لا ظليل ولا يغنى من اللهب " إنه ظل خانق حار لافح وتسميته بالظل ليست إلا امتدادًا للتهكم . [4]

---

[1] في ظلال القرآن : ٣٤٩١ .

[2] المفردات في غريب القرآن : ٣٦١ (غ ر ر) .

[3] سورة المرسلات : الآيات ٢٩ ــ ٣٣ .

[4] مفاتيح الغيب ١١٢/١٦ ، وفي ظلال القرآن : ٣٧٩٣ .

فتسمية النار بالظل مجاز ، من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ . [2]

" إنها ترمي بشرر القصر " الشرر واحدته شررة ، والشرار واحدته شرارة : وهو ما تطاير من النار من كل جهة ، وأصله من شررت الثوب : إذا بسطته للشمس ليجف ، سمي بذلك لاعتقاد الشرفيه . [3]

والقصر : هو البناء العالي . وقيل : الغليظ من الشجر. وقيل : الجبال ، والمراد كل شرارة كذلك في العظم . [4]

" كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ " الجمالة : الذكور من الإبل خاصة،قال ابن السكيت : " يقال للإبل إذا لم تكن أنثى ، وكانت ذكورة : هذه جمالة بني فلان " . [5]

والصفر : سود الإبل ، قال الفراء : " لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشرب بصفرة ؛ فلذلك سمت العرب سود الإبل: صفرا ، كما سموا الظباء : أُدْمًا ؛ لما يعلوها من الظلمة في بياضها" . [6]

وقال ابن عباس : " كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ " أي : كقطع النحاس ، والنحاس لونه أصفر " [7] واللون الأصفر ــ هنا ــ يرمز لمدى شدة هول جهنم ولهيبها . [8]

---

[1] سورة الزمر : من الآية ١٦ .

[2] سورة العنكبوت : من الآية ٥٥ .

[3] ينظر : الصحاح ٢ / ٦٩٥ (ش ر ر) ، والقرطبي ١٠ / ٧١٩٩ ، وروح المعاني ٣٠ / ٢٢٢ .

[4] روح المعاني ٢٩ / ٢٢٢ .

[5] الألفاظ : ٤٧ .

[6] القرطبي ٣ / ٧١٩٩ ، وروح المعاني ٢٩ / ٢٢٢ .

[7] تفسير ابن كثير ٤ / ٤٦٠ .

[8] تفسير الصابوني المسمى بصفوة التفاسير ٩ / ٥٠٣ .

وهاتان الآيتان الأخيرتان في وصف نار جهنم ، فقد شبه الشرر المتطاير منها ـ في مقاديره ـ بالقصر ، وهو البناء العالي، أو الشجر الغليظ ، أو الجبل، ثم شبهه ـ في لونه ـ بالجمالة الصفر ، فإن الشرار ـ لما فيه من النار والهوائية ـ يكون أصفر فـ(الصفرة) ـ هنا ـ على معناها المعروف ؛ لأن العرب تستعمل وصف الأصفر فيما كان لونه كالذهب والزعفران والورس [1]، فيقال : أهلك النساء الأصفران : الذهب والزعفران .

وقال الألوسي : " شبه الشرر ـ حين ينفصل من النار في عظمه ـ بالقصر ، وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط ـ لانشقاقه عن أعداد غير محصورة ـ بالجمال ؛ لتصور الانشقاق والكثرة والصفرة والحركة المخصوصة . وقد روعي الترتيب في التشبيه ؛ رعاية لترتيب الوجود ، وأفيد أن القصور والجمال يشبه بعضها بعضا ، ومنه قول (عنترة) :

فَوَقَفْتُ فيها ناقتي وكأنها ∴ فَدَنٌ لأقضيَ حاجةَ المعلومِ[2]

فالتشبيه الثاني بيان للتشبيه الأول ، على أن معنى التشبيه بالقصر كان المتبادر منه إلى الفهم العظم ، فلما قيل : " كأنه جماله صفر " وهو قائم مقام التخصيص في القصر ـ تكثر وجه الشبه ، كأنه قيل : من شأنه كذا وكذا ، والتشبيه بالجمال في الكثرة والتتابع والسرعة في الحركة " . [3]

---

[1] الورس : نبت أصفر يكون باليمن تتخذ منه الغمرة للوجه ، تقول : أروس المكان وأروس الرمث ، أي : أصفر ورقه بعد الإدراك فصار عليه مثل الملاء الصفر . ينظر : الصحاح ٣ / ٩٨٨ (و ر س) .

[2] البيت من الكامل وينظر في : شرح المعلقات السبع للزوزني : ١٩٢ ، المحكم ٨ / ٣٠٥ ، واللسان ٤ / ٢٤٥٨ (ص ف ر) .

[3] روح المعاني ٢٩ / ٢٢٣ .

هذا ، وقد فسر ابن جرير الطبري التشبيه في قوله تعالى: " كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ " قائلا : كالإبل السود ، والأدق أن يقال : صفر ضارب لونها إلى سواد ، والعرب تستعمل وصف (الأصفر) فيما كان لونه كالذهب والزعفران والورس ـ كما سبق ـ وربما سمت العرب الأسود ، كالغراب والدخان ـ مثلا ـ أصفر كما قال الأعشى :

تلكَ خيلِي منه ، وتلك رِكابِي ∴ هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزبيبِ[1]

يقول ابن مطرف : " أي : هن سود ، وإنما سميت السود من الإبل صفرًا؛ لأنه يشوب سوادها شيء من الصفرة ، كما قيل لبيض الظباء أُدْمٌ ؛ لأن بياضها تعلوه كدرة ، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار يكون أشبه شيء بالإبل السود ، لما يشوبها من الصفرة " . [2]

فالآيتان تصفان نار جهنم ، وهي لا تتفق مع نار الدنيا إلا في الاسم ، أما في الرسم والأصل فهى جد مختلفة ، أنها تصور النار على شكل كائن حي مجسدًا تجسيدًا رهيبًا يأخذ بالأفئدة ، ويستلب الألباب ، فهي ذات جسد عملاق شاهق البنيان ، يخرج من قبضتها منطلقًا لمسافات بعيدة ، كل شرارة منها كالقصر في عظمته وارتفاعه ، والشرارات المقذوفة من النار ـ في مجموعها ـ تشبه الجمال الصفر في اللون وسرعة الحركة ، والانشقاق والتتابع .

تخيل اندلاع النار في أحد الأبنية العظيمة ـ وهو يحدث كثيرًا هذه الأيام في أنحاء الأرض ـ وقارن " شكل " الشرر المتطاير منها في كل اتجاه ، وبين " شكل " مجموعات الجمال الصفر الكثيرة الهائجة المتموجة المندفعة دون نظام في كل مكان "شكل " رؤوس الجمال ، ورقابها ، وأسنامها ، وأجسادها وأرجلها وذيولها ، وعظمة بنيانها ، وارتفاعها ، وألوانها السود المشوبة بالصفرة ، إنها

---

[1] البيت من " الخفيف " وينظر في ديوانه : ٢٧ .

[2] القرطين ٢ / ١٩٩ .

لوحة فنية تشكيلية رائعة ، اجتمعت فيها كل مقومات العمل الفني ، إنها دعوة للاستلهام ، والتعلم ، والارتشاف من هذا المعين ــ القرآن الكريم ــ المستمر الذي لا ينضب ، وهذا الكنز الدائم الذي لا يفني .[1]

والخلاصة في اللون الأصفر :

أن معرفة الإنسان بالألوان وبخاصة الأصفر منها ــ قديمة قدم الزمان ، وأن العرب قد عرفوا هذا اللون وعبروا عنه في أدبهم وفنهم منذ العصر الجاهلي.

أنه أحد الألوان الأساسية ، وأنه من أكثر الألوان وضوحًا وأنه يحمل في طياته المعنى وضده ، فهو كغيره من الألوان يختلف بحسب الحال التي يوجد عليها ، فهو في البقرة الصفراء الفاقع لونها يسر الناظرين ، وفي سنابل القمح ، وثمار الفاكهة الناضجة يعبر عن الصحة والعافية والاكتمال .

أما في اصفرار الزرع ــ كما جاء في سورتي الزمر والحديد ــ فإنه يعني فقد الحياة والنضارة ، وذلك مؤذن ببيسه وزواله .

وفي سورة المرسلات شبه الحق (جل وعلا) شرر النار بالجمال الصفر، والمقصود من التشبيه ــ هنا ــ العظم والتتابع، فالشرر يتتابع في حجم البيت من الحجر ، فإذا تتابع ظهر كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ، فهو لون مرعب مفزع تقشعر منه أبدان الناظرين .

---

[1] الرسم بالألوان / ١٦٧ .

الفصل الثاني

الألوان المحايدة والثانوية (المتداخلة) في القرآن

المبحث الأول

(الأبيض والأسود)

الأبيض والأسود ــ كما سبق ــ ليسا ألوانا ، بل يطلق عليهما محايدات ؛ لأنهما يتوافقان مع الألوان جميعها دون أية استثناءات على الإطلاق ؛ وذلك أن الألوان جميعها مشتقة منهما، فاللون الأبيض عند تحليله يكون الناتج ألوان الطيف السبعة ، ويمزج هذه الألوان السبعة ينتج الأبيض مرة أخرى.

والأبيض والأسود هما درجتان للون واحد ــ وإطلاق كلمة (اللون) عليهما من باب المجاز ــ يبدأ بالأبيض الفاتح وينتهي بالأسود ، وبينهما درجات الرمادي ، يبدأ بالرمادي الفاتح جدًا ، القريب من الأبيض ، وينتهي بالرمادي الغامق جدًا القريب من الأسود . [1]

ويعد الأبيض والأسود والرماديات العديدة التي تستنبط من مزجهما ألوانا جارية أو محايدة ، والرماديات تستنبط ــ أيضا ــ من مزج الألوان الأساسية سابقة الذكر ، وهذه الألوان الحيادية قد اهتم بها الفنانون كاهتمامهم بالألوان الأساسية ، إذ تعالج كثيرًا من المشكلات الفنية في التكوين ، حيث إن خواصها تتمثل في :

- أنها غير موجودة على الدائرة اللونية .
- تعد لا لون لها .
- تتوافق ــ دائما ــ مع أي مجموعة لونية . [2]

---

[1] الرسم بالألوان : ٢٥٠ .

[2] السابق: ١١٤ .

هذا،وقد عرف العربي هذين اللونين منذ العصر الجاهلي ، واستخدمهما في شعره على مر العصور ، ووظفهما حيث يجب التوظيف ، من ذلك قول امرئ القيس :

مُهفهفةٍ بيضاءَ غيرَ مُفَاضةٍ
ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ
كبكرِ المُقَانَاةِ البياضِ بصفرةٍ
غَذَاها نَميرُ الماءِ غيرُ المُحلَلِ[1]

وقوله ــ يصف شعر امرأة يشبهه بالعثكال :

وفرعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فَاحِمٍ
أثِيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ[2]

وكقول عنترة العبسي :

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً
سُودًا كَخَافِيةِ الغُرابِ الأَسْحَمِ[3]

وتأمل هذه الصورة لعنترة أيضا ، التي لا تنتج إلا عن خيال جامح فريد لفنان محب ، كيف ألف بين أبيض السيوف اللامعة ــ وهي اقطر دمًا ــ وبين بريق الأسنان البيضاء لعبلة من بين شفتيها الحمراء ، عندما خطرت بباله وهو في أتون المعركة ، يقول :

---

(١) البيتان من " الطويل " وينظران في ديوانه : ١٥ ، ١٦ ، والتهذيب ٥ / ٣٧٧ وجمهرة أشعار العرب : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ١٦ ، وغريب الحديث / لأبي عبيد ٢٩٢/١ . (والأثيث : كثير النبات ، والمتعثكل : المتداخل لكثرته) .

(٣) البيت من " الكامل " وينظر في شعره : ٢٢ .

ولقـــد ذكرتـــكِ والرمـــاحُ نَوَاهِـــلٌ

منى ، وبِيضُ الهندِ تَقْطُـرُ مـن دَمِـي[1]

وأحب العرب الأبيض والأسود وفضلوهما في ألوان الخيل، وهي أربعـة : (بياض ، وسواد ، وحمرة ، وصفرة) والحقيقة أن الأصل البياض والسواد ؛ لأن الحمرة والصفرة إليهما يرجع ، ومنهما ينشئان ، ولبياض الفرس وسواده أسـماء كثيرة عندهم حسب الدرجة اللونية . [2]

كما ورد هذين اللونين في الحديث النبوي الشريف ، من ذلك قوله (ﷺ) : " أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو الشعرة البيضاء فـي جنب الثور الأسود ".[3]

وقوله (ﷺ) في وصف ذي السويقتين (تصغير ساق) وهـو رجـل مـن الحبشة يهدم الكعبة آخر الزمان ــ : " كأني به أسود أفجج (متباعـد مـا بـين الفخذين) يقلعها حجرا حجرا ".[4]

وقد استعملهما (ﷺ) وأمر باستعمالها ، قال (ﷺ) : "البـسوا مـن أثيـابكم البياض ، فإنها خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم " . [5]

وعن أبى ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال : " أتيت النبي (ﷺ) وعليـه ثوب أبيض " . [6]

---

[1] البيت من " الكامل " وينظر في جمهرة أشعار العرب : ٢١٩ ، وليس في شعره جمع الدكتور خفاجي .

[2] كتاب الخيل لأبى عبيدة : ١ / ٢٨ .

[3] صحيح البخاري ــ تفسير ــ سورة الحج ٦ / ١٢٣ .

[4] صحيح البخاري ٢ / ١٨٣ من كتاب " الحج " ــ باب " هدم الكعبة " .

[5] مسند الإمام أحمد ١ / ٢٤٧ ، ٢٧٤ .

[6] صحيح البخاري ــ كتاب اللباس ــ باب الثياب البيض ٧ / ١٩٢ .

وفي حديث جابر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) دخل مكة وعليه عمامة سوداء "[1] . وفي رواية : " أن رسول الله (ﷺ) خطب الناس وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه "[2] . ومعنى ذلك استحباب النبي (ﷺ) اللون الأسود في الثياب أيضا .

خلاصة القول : أن اللون الأبيض والأسود لا يكتسبان صفاتهما المتميزة إلا من خلال ما يعبران عنه ، أو ما يحيط بهما ، فهما يؤثران ويتأثران بما يحيط بهما من ألوان وأشكال .

وسأتناول ــ بمشيئة الله تعالى ــ في الصفحات القادمة الآيات التي تحدثت عن هذين اللونين في القرآن الكريم ، مبينا دلالتها وما ترمز إليه ، وكيفية توظيف القرآن لها .

أولا : الأبيض :

لون محايد يتوافق مع الألوان جميعا ، فهو مجموعها ــ كما سبق ــ إنه غيوبة الألوان ، يشبه الصمت الذي يحتوي على إمكانات المباشرة ، يضيء الألوان القاتمة ، ويزيدها ثراء ، وتخبو فيه الألوان الفاتحة حيث يحتويها . [3]

وهو لون مشع ، عاكس لضوء الشمس ، يطرد الحرارة ، ويمتص البرودة ، وهو رمز للنقاء والصفاء ، والنظافة والطهارة ، وهو لون زي المعتمرين وحجاج بيت الله الحرام من الذكور في الدنيا ، ولون وجوه أهل الجنة في الآخرة .

كما يعد هذا اللون من محاسن خلقة النساء عند العرب ، من ذلك قول النابغة الذبياني :

---

[1] صحيح مسلم ــ حج ــ ٢ / ٩٩٠ ، والمسند ٣ / ٣٦٣ .

[2] صحيح مسلم ــ حج ــ ٢ / ٩٩٠ .

[3] الألوان ودلالتها في القرآن : ٦٥ ، والرسم بالألوان : ٢٦٥ .

بيضاءُ كالشمسِ وافتْ يـوم أسـعَدها

لم تؤذِ أهلًا ، ولم تَفْحَـشْ علـى جـارِ[1]

وقول عمر بن أبى ربيعة :

بيـــضاءُ ناصـــعةُ البيـــاضِ

كَـــدُرَّةِ الـــصَّدَفِ الكَنِـــينِ[2]

والعرب تشبه المرأة بالبيضة في صفائها وبياضها ، ولذلك يقـال لهـن : ربات الخدور ، قال امرؤ القيس :

وبيـــضةِ خِـــدْرٍ لا يُـــرامُ خِبَاؤُهـــا

تَمَتَّعتُ مـن لَهْـوٍ بِهَـا غَيْـرَ مُعْجَـلِ[3]

ولما كان البياض أفضل لون عند العرب ــ كما قيل : البيـاض أفـضل ، والسواد أهول ، والحمرة أجمل ، والصفرة أشكل ــ عبـر عـن الفـضل والكـرم بالبياض ، حتى قيل لمن لم يتدنس عرضه بمعاب : هو أبيض اللون " .[4]

فاللون الأبيض يتميز عن سائر الألوان في وظيفته ، ورمزه ، ودلالتـه ، فهناك من العلاقات التي تربط بين هذا اللون وسلوك الإنسان ، فكثيرًا ما يـستخدم في حياتنا اليومية مثل : الأيادي البيضاء ، والوجه الأبيض ، والراية البيضاء .

على أن اللون الأبيض ليس محمودا في كل حال ، بل قد يكون مـذمومًا ، وغير مستحسن كما في ابيضاض العيون إذا كان من علة ، كما جاء فـي قـصة

---

[1] البت من البسيط وينظر في ديوانه : ٤٩ .

[2] البيت من " مجزوء الكامل " وهو في ديوانه : ٢١٦ .

[3] البيـت مـن " الطويـل " وينظـر فـي ديوانـه : ١٣ ، والتهـذيب ٢ / ٨٤ ، والقرطبي ٨/٥٧٢٠ .

[4] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ٧٦ (ب ي ض).

يوسف عن وصف عين أبيه يعقوب (عليه السلام) : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُـزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.[1]

استعمال اللون الأبيض وما اشتق منه في لغة العرب :

استعمل هذا اللفظ ــ وما اشتق منه ــ في أصل اللغة للدلالة على اللـون المعروف[2] ، والبياض ضد السواد ، يكون ذلك في الحيـوان والنبـات ، وأصـله بيض بضم الباء ، وإنما أبدلوا من الضمة كسرة ، لتصح الياء .[3]

وقد استعمل هذا الأصل في الشعر العربي : قديمه وحديثه بل وفـي كـل مصادر اللغة من القرآن ، والحديث ، والنثر ، والشعر في هذا المعنى ، ومنه قول عنترة :

شَـابَ رأسـي فـصار أبـيضَ لونًـا

بعـدما كـان حالِكًـا بالـسوادِ[4]

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

أبـيضّ أبلـجّ وجهُـهُ كالشمسِ في خيـرِ البـشرْ[5]

ثم صار هذا اللفظ (اسما) لكل ما اتصف بصفة البياض، أو بهذا اللـون المعروف ، فأطلق عل (السيف) لفظ الأبيض، ومنه قول عنترة :

ناديـتُ عبْـسًا فاسـتجابوا بالقَنَـا

وبكـلِ أبـيضَ صـارمٍ لـم يَنْجَـلِ

---

[1] سورة يوسف : من الآية ٨٤ .

[2] مقاييس اللغة ١ / ٣٢٦ (ب ى ض) .

[3] اللسان ١ / ٣٩٦ (ب ي ض) .

[4] البيت من " الخفيف " وينظر في شعره : ٦٣ .

[5] البيت من " مجزوء الكامل " وينظر في ديوانها : ٥٠ .

حتـــى اســـتباحوا آلَ عـــوفٍ عُنْـــوةً

بِالَمـــــشْرَفِيِّ وبالوشِـــــبجِ الـــــذُّبَّلِ[1]

ومنه الأبيض : عرق السرة . وقيل : عرق في الصلب . وقيل : عرق في الحالب ، صفة غالبة لمكان البياض ، قال ذو الرمة:

وأبـــيضَ قـــد كَلِفْتُـــهُ بعـــد شُـــقَّةٍ

تَعَقَّـــدَ منـــه مَأْبِـــضَاهُ وحَالِبُـــهُ[2]

والأبيضان : عرقان في البطن لبياضهما ، وهما عرقان ــ أيضا ــ في حالب البعير ، وقيل : الأبيضان : الشحم والشباب، كما في قول محي الدين بن عربي (من شعراء العصر العباسي):

والشَحمُ ثم الشبابُ الأبيضانِ إلى

شهودِ هذينِ نفسِ القومِ ترتاحُ[3]

---

[1] البيتان من " الكامل " وينظران في أشعاره : ٤٣ .

[2] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ٢ / ٨٤٧ .

[3] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ١٩٣ .

وقيل الأبيضان : الخبز والماء . وقيل : الماء واللبن ، كما في قول هذيل الأشجعي (من شعراء الحجازيين) :

ولكنما يمضِي لي الحولُ كاملًا

مالي إلا الأبيضينِ شرابُ[1]

وعلى هذا ، فاللفظ ــ وما اشتق منه ــ قد استعمل في أصل اللغة ؛ للدلالة على كل ما ، أو من اتصف بصفة البياض ، وهو اللون المعروف ، وضد السواد .

لكن هذا اللون قد استعمل ــ قديما ــ أيضا استعمالا مجازيا على سبيل (التطور الدلالي) ، فقد جاء (وصفا مجازيا) لليد ، وللحجة ، وللأرض تارة ، كما جاء مدحا للإنسان بنقاء العرض من الدنس والعيوب تارة أخرى .

فمما استعمل (وصفا) قولهم : الأرض البيضاء ، في معنى: الأرض التي لم يسفك فيهما دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة.[2] وقد جاء هذا الاستعمال المجازي بطرق الكناية في حديث ابن مسعود ، قال : قال رسول الله (ﷺ) في قول الله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ قال : أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة " .[3]

ومن ذلك قولهم : (الحجة البيضاء) بمعنى : الظاهرة القوية[4] ، وعليه قول ابن هاني الأندلسي :

والخُطْبَةُ الزهراءُ فيها الحكمةُ ال

غراءُ فيها الحجةُ البيضاءُ[5]

---

[1] البيت من " الطويل " وينظر في : تهذيب اللغة ١٢ / ٨٧ ، واللسان ٣٩٧/١ (ب ى ض) .

[2] المعجم الوسيط ١ / ٧٩ (ب ي ض) .

[3] تحفة الأحوذي ٨ / ٤٣٥ . والآية من سورة إبراهيم : آية رقم ٤٨ .

[4] المعجم الوسيط ١ / ٧٩ (ب ي ض) .

[5] البيت من " الكامل " وينظر في ديوانه : ١٣ .

ومن ذلك قولهم : (اليد البيضاء) كناية عن النعمة التي لا يشوبها من ولا أذى [1] ، ومنه قول البحتري في كتابه إلى أبى محمد بن علي القمي :

أخْجَلتَنـــي بِنَـــدَى يـــديكَ فـــسوَّدَت

مـــا بيننـــا تلـــكَ اليـــدُ البيـــضاءُ[2]

كذا قول الشريف الرضي وهو من شعراء العصر العباسي:

فـــي كـــل مُظْلِـــمِ أزْمَـــةٍ أو ضِـــيقَةٍ

يبـــدو لهـــا أثَـــرُ اليـــدِ البيـــضاءِ[3]

ـ ومن استعمال اللون الأبيض في المدح بالكرم ، ونقاء العرض من الدنس والعيوب ، كأن تقول العرب : فلان أبيض ، وفلانة بيضاء ، ومن ذلك قول زهير ـ يمدح رجلا ـ :

أغـــرُ أبـــيضُ فيـــاضٌ يفكـــكُ عـــن

أيدي العُنَـــاةِ ، وعـــن أعناقِهـــا الرِّبَقَـــا[4]

---

[1] المعجم الوسيط ١ / ٧٩ .

[2] البيت من " الكامل " وينظر في ديوانه ٢ / ٣١٩ .

[3] البيت من " الكامل " وينظر في ديوانه : ٢٨ .

[4] البيت من " البسيط " وينظر في ديوانه : ٤٢ ، وتهذيب اللغة ١٣٥/٩ ، ٥٨٧/١٢ .

وقوله :

أُمُّـكَ بيـضاءُ مـن قُـضاعةَ فـي

آل بيـتِ الـذي تـستظلُ فـي طُنُبِـهْ[1]

وهذا كثير في شعرهم ، لا يريدون به بياض اللون ، ولكنهم يريدون المدح بالكرم ، ونقاء العرض من العيوب .

الأبيض في القرآن الكريم :

هذا ، وقد ورد هذا اللون في القرآن الكريم في إحدى عشرة آيـة ، دالّـا على الهداية ، والنقاء ، والصفاء ، والحب والخير ، والليل والنهار ، والحزن أيضا ، وهو ما أعرض له ــ بإذن الله تعالى ــ في السطور القادمة .

* ــ قال الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[2] .

الآية الكريمة توضح ميعاد الإمساك عن الطعام في أيام شـهر رمـضان ، تقول :كلوا واشربوا إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق ؛ لأنه كان على عهد رسول الله (ﷺ) أذانان للفجر ، فقد ورد من حديث القاسم عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) قال : (لا يمنعنكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينـادي بليـل ، فكلـوا واشربـوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتـى يطلـع الفجر " . [3]

---

[1] البيت من " المنسرح " لعبد الله بن قيس الرقيات وينظر في ديوانه : ١٤ ، وتهذيب اللغة ١٢ / ٨٧ .

[2] البقرة : من الآية ١٨٧ .

[3] البخاري ــ صوم ــ باب (وكلوا واشربوا ...) ٣ / ٣٧ ، ومسلم ــ صيام ٢ / ٧٦٧ .

وعن سمرة بن جندب (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : " لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا " . وحكاه حماد بيديه . قال : يعني معترضا " . [1]

وعن سهل بن سعد (رضي الله عنهما) قال : " أنزلت : (كُلُوا وَاشْرَبُوا) إلخ ، ولم ينزل : (مِنَ الفَجْرِ) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض ، والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله ــ تعالى ــ بعد ذلك : (مِنَ الفَجْرِ) فعلموا أنما يعني الليل والنهار " . [2]

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم وجماعة ، عن عدي بن حاتم (رضي الله عنهما) قال : " لما أنزلت هذه الآية : (كُلُوا وَاشْرَبُوا ...) إلخ ، عمدت إلى عقالين : أحدهما أسود ، والآخر أبيض فجعلتهما تحت وسادني ، فجعلت أنظر فلا أتبين الأبيض من الأسود ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله (ﷺ) فأخبرته بالذي صنعت ، فقال : " إن وسادك ــ إذًا ــ لعريض ، إنما ذاك بياض النهار من سواد الليل " . [3]

وسمي الفجر خيطا ؛ لأن ما يبدو من البياض يرى ممتدًا كالخيط ، قال أمية بن أبي الصلت :

الخيطُ الأبيضُ ضوءُ الصبحِ منفلقٌ

والخيطُ الأسودُ جنحُ الليلِ مكْمَومُ [4]

وقال أبو دؤاد الأيادي :

---

[1] صحيح مسلم ــ كتاب الصيام ــ ٣ / ٧٧٠ .

[2] البخاري ــ صوم ــ باب (وكلوا واشربوا ...) ٣ / ٣٦ ، ٣٧ ، ومسلم ــ صيام ــ ٢ / ٧٦٧ .

[3] البخاري ــ صوم ــ باب (وكلوا واشربوا ...) ٣ / ٣٦ ، ومسلم ــ صيام ٢ / ٧٦٦ ، ٧٦٧ .

[4] البيت من " البسيط " وينظر فى ديوانه ١٢٩ ، والقرطبي ١/ ٨٠٤ .

فلمـــا أضـــاءتْ لنـــا سُـــدْفَةٌ ولاح من الصبحِ خَـيْطٌ أنَـارَا[1]

وقد تسمي العرب الفجر (صديعا) ، ومنه قولهم : انـصدع الفجـر ، قـال عمرو بن معدي يكرب :

تَـــرى الـــسِّرْحَان مُفْتَرِشًـــا يديْـــه

كـــأن بيـــاضَ لُبَّتِـــهِ صَـــدِيعُ [2]

وشبهه الشماخ بمفرق الرأس ، فقال :

إذَا مـــا الـــصبحُ شَـــقَّ الليـــلُ عنـــه

أشَّـــق كمفْـــرَقِ الـــرأسِ الـــدهينِ [3]

ويقولون في الأمر الواضح : هذا كفلق الصبح ، وكاتبلاج الفجر ، وتباشير الصباح ، قال الشاعر :

فَـــوَرَدَتْ قبـــل انـــبلاجِ الفجـــرِ

وابـــنُ ذَكَـــا كـــامنٌ فـــي كَفْـــرِ[4]

وقال الزجاج : " هما فجران ، أحدهما يبدو أسود معترضًا وهـو الخـيط الأسود ، والآخر يبدو طالعًا مستطيلًا يملأ الأفق فهو الخيط الأبيض ، وحقيقتـه : حتى يتبين لكم الليل من النهار " . [5]

---

[1] البيـت مـن " المتقـارب " وينظـر في تهذيب اللغة ٧ / ٥٠٣ ، والقرطبي ١/ ٨٠٤ .

[2] البيت من " الوافر " وينظر في ديوانه ٣٣٤ ، والقرطبي ١/ ٨٠٥.

[3] البيت من " الوافر " وينظر في ديوانه : ٣٣٤ .

[4] البيتان من " الرجز " لحميد الأرقط في تهذيب اللغة ١٠ / ٣٣٨ ، والقرطبي ١/ ٨٠٥ .

[5] معاني القرآن وإعرابه ١ / ٢٥٧ .

وقيل الخيط : اللون ، واحتج بهذه الآية ، قال أبو عبيد : "يدل على صحة قوله ، ما قاله النبي (ﷺ) في تفسير الخيطين : "إنما هو سواد الليل ، وبياض النهار " سميا بذلك تشبيها بالخيطين. [1]

وقوله تعالى : (مِنَ الفَجْرِ) يدل على أنه أريد بالخيط الأبيض ، والخيط الأسود الصبح الصادق : وهو البياض المستطير في الأفق ، لا الصبح الكاذب : وهو البياض المستطيل ؛ لأن الفجر هو انفجار النهار ، وهو بالثاني لا بالأول ، وشبه بالخيط وذلك بأول حاله ؛ لأنه يبدو دقيقًا ، ثم يرتفع مستطيرا ، فبطلوع أوله في الأفق يجب الإمساك ، هذا مذهب الجمهور ، وبه أخذ الناس ، ومضت عليه الأعصار والأمصار ، وهو مقتضى حديث سمرة سابق الذكر . [2]

ويمكن أن نستنتج من الآية الكريمة أن الأبيض هو امتداد للأسود ، والأسود امتداد للأبيض ، فالأبيض والأسود هما طرفا الخيط ، فبياض النهار لا ينبثق هكذا فجأة ، بل يتدرج شيئا فشيئا من سواد الليل ، وهو ما أثبتته البحوث العلمية بالتجربة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . [3]

* ــ وقال (تعالى) حكاية عن موسى (عليه السلام) : ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ . [4]

وفيما أمره به ، قال تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ . [5]

---

[1] تهذيب اللغة ٧ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ (خ ي ط) .

[2] البحر المحيط ٢/٥١ ، ومفاتيح الغيب ٣/١١٠ ، وروح المعاني ٢/٦٦ ، ٦٧ .

[3] الرسم بالألوان : ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

[4] سورة الأعراف : ١٠٧ ، ١٠٨ ، والشعراء : ٣٢ ، ٣٣ .

[5] سورة طه : ٢٢ ، ٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . [1]

وقال تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . [2]

المواضع الخمسة تحكي إحدى معجزات سيدنا موسى (عليه السلام) ؛ وهي جزء من قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون ، واللون (الأبيض) مكرر فيها بالمعنى ، والتكرار ليس ظاهرة غريبة ، فهو موجود في كل شيء من إبداع الخالق ، أو من صنع المخلوق : موجود في الشهيق والزفير ، ونبضات القلب المنتظمة ، وتعاقب الليل والنهار ، وفي الحروف التي نقرأها ، وفي الثمر ، والحجر ، والطير ، والحيوان . [3]

وقد تكرر ذكر اللون الأبيض (بيضاء) في المواضع الخمسة أو الآيات الخمس في اللفظ والمعنى : " فقد كان سيدنا موسى (عليه السلام) آدم ، شديد الأدمة ، فليس في يده بياض، فلما أدخلها في إبطه وأخرجها فإذا هي بيضاء نوارنية،غلب شعاعها شعاع الشمس،فصار بياضها للناظرين لا في جبلتها " . [4]

وقال ابن عباس : " كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض " وقيل : كانت تخرج يده بيضاء ، كالثلج تلوح ، فإذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه " . وقال مجاهد : "بيضاء كاللبن ، أو أشد بياضًا " . [5]

---

[1] سورة النمل : ١٢ .

[2] سورة القصص : ٣٢ .

[3] الرسم بالألوان : ٢٦٦ .

[4] الجواهر في تفسير القرآن الكريم / للشيخ طنطاوي جوهري ٤ / ٤٠٨ .

[5] القرطبي ٤ / ٢٧٨٦ ، والبحر ٤ / ٣٥٨ ، وفي ظلال القرآن ١٣٤٧ .

وقوله تعالى : " لِلنَّاظِرِينَ " أي : للنظار ، وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها ؛ لأنه لا يعرض لها للنظار ــ إلا إذا كان بياضها عجيبًا ، خارجا عن العادة ، يجتمع الناس إليه كما يجتمع النظار للعجائب . (١)

وتكرر قوله ــ تعالى ــ ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ ثلاث مرات، في ثلاث آيات ؛ ليؤكد الحق أن هذا البياض لم يكن نتيجة عيب في اليد . قال الرازي : " لما كان البياض كالعيب بين الله ــ تعالى أنه كان من غير سوء " (٢) . ويقال له عند أرباب البيان (الاحتراس) (٣) ؛ لأنه لو اقتصر على قوله (بيضاء) لأوهم أن ذلك من برص أو بهق ، فاحترس لذلك بقوله تعالى : (من غير سوء) . (٤)

فهذا التعبير يلفتنا إلى أن هذا ليس عن مرض فيفزع ، لاسيما أن ضم اليد إلى الجناح مما يحبس الدم ــ بتعبيرنا الشائع ــ فلا يبدو له أثر بالجلد . (٥)

والقرآن الكريم عبر عن إدخال اليد في الجيب بثلاث تعبيرات : " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ " ، و" وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ " ، و" اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ " وذلك لاختلاف الغرض في كل ، قال أبو حيان : " ومعنى : وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ " و" اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ " على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين

---

(١) البحر المحيط ٤ / ٣٥٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٠ / ٦٤ .

(٣) الاحتراس هو : " أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه أي : يؤتى بشيء يدفع ذلك الإيهام ، نحو قوله تعالى : " فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ " (المائدة : ٥٤) فإنه تعالى لو اقتصر على وصفهم بـ (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ، لتوهم أن ذلك لضعفهم ، وهذا خلاف المقصود ، فأتى على سبيل التكميل بقوله تعالى : (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) التعريفات : ٣٤ .

(٤) البحر المحيط ٦ م ٢٣٦ ، وفتح القدير ٤ / ١٢٧ .

(٥) دراسات لغوية في القرآن : ١١٨ .

العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد ؛ لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض في أحدهما : خروج اليد بيضاء ، وفي الثاني : إخفاء الرهب . [1]

وخلاصة القول : أن اللون الأبيض ــ هنا ــ رمز للنورانية ، والتلؤلؤ ، وأساس لمعجزة وهبها الله لنبيه موسى (عليه السلام) ولكن لماذا الأبيض بالذات دون سائر الألوان ؟

هل لأن الأبيض أساس الألوان جميعًا ، ومنه تنبثق ، وبها يتكون ؟ .

هل لأن الأبيض لون محايد يتوافق مع الألوان جميعًا ؟ .

هل لأنه اللون المضاد للون بشرة سيدنا موسى عليه السلام ؟

هل لأنه لون مريح للعين ، مهدئ للنفس ، أو أن فيه إثارة وإبهارًا ؟

هل لأنه من الطبيعي أن يخرج الأبيض من الأسود ، وأن الإثارة والإبهار في المفاجأة والكيفية التي خرج بها ؟

هل لأن الأبيض يعني : الضياء ، والنور ، والطهارة ، والنظافة ، والنقاء والسلام ؟

يجيب الدكتور ــ أحمد رأفت عن هذه الأسئلة فيقول : "إنه في ــ اعتقادنا ــ هؤلاء جميعا " .

ثم يقول : " تخيل معي لو خرجت يده (عليه السلام) حمراء بلون الدم أو النار . هل كانت تؤدي الغرض والرسالة في عيون وعقول النظارة ، كما " الأبيض" ؟

وتخيل معي ــ أيضا ــ لو خرجت يده (عليه السلام) (صفراء) والأصفر في لون البشرة يعني ــ لدى العامة والخاصة ــ المرض .. كيف سيكون تأثيرها؟

---

[1] البحر المحيط ٧ / ١١٧ ، وينظر : مفاتيح الغيب ١٢ / ٢٧٩ .

ولو خرجت (زرقاء) وأزرق البشرة يتأتى من شدة الرعب والفزع ، أو غير ذلك ، هل يناسب غير الأبيض بشرة الإنسان في هذا الموقف بالذات ؟! وأي أبيض ... أنه أبيض متلألأ ، كقطعة من القمر . [1]

* ــ وقال ــ تعالى ــ حكاية عن نبي الله يعقوب ــ : ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ . [2]

سبق أن ذكرت أن اللون الأبيض ــ كغيره ــ ليس محمودا في كل حال ، فقد يكون مذمومًا ، وغير مستحسن، كما في ابيضاض العيون إذا كان من علة كهذه الآية الكريمة.

وظاهرة تبدل لون سواد العينين من المرض أو الحزن، حتى يؤدي بالإنسان إلى العمى معروف عند العرب ، قال الحارث بن حلزة اليشكري :

قبلَ ما اليوم بَيَّضَتْ بعيونِ النـ
ـاسِ فيها تَغَيُّظٌ وإباءُ[3]

لكن الرازي (رحمه الله) أورد في ابيضاض عين يعقوب وجهين :

الوجه الأول : قال ابن عباس : " أنه لما قال : " يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ " غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين، فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، فقوله تعالى : "وابيضت عيناه من الحزن " كناية عن غلبة البكاء .

---

[1] الرسم بالألوان في القرآن : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

[2] سورة يوسف : ٨٤ .

[3] البيت من " الخفيف " وينظر في : شرح المعلقات السبع لأبي بكر الأنباري : ٤٥٨ ، والتحرير والتنوير ١٢ / ١٠٨ ، وتبيض العيون كناية عن العمى ، يقول : لقد أعمت عزتنا عيون أعدائنا من الناس " .

والدليل على صحة هذا القول : أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى ، فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان التعليل حسنًا ، ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل .

الوجه الثاني : أن المراد هو العمى ، قال مقاتل : " لم يبصر بهما ست سنين ، حتى كشف الله ــ تعالى ــ عنه بقميص يوسف عليه السلام ، وهو قوله تعالى : " فألقوه على وجه أبى يرتد بصيرًا " . (١)

والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب العمى؛ لأنه يورث كدورة في سوداء العين . وقيل ماعمى ، لكنه صار يدرك إدراكًا ضعيفًا . (٢)

* ــ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . (٣)

لما أمر الله (جل وعلا) اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض ، ثم أمر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض ، أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة ؛ تأكيدا للأمر . (٤)

والسياق ــ هنا ــ يرسم مشهدًا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية ، مشهد هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف ، ولكن يتمثل في آدميين أحياء ، في وجوه وسمات : هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة . وهذه وجوه كمدت من الحزن ، وأغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة ، وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه ، ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا

---

(١) سورة يوسف : ٩٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٣٣/٩ ، وينظر : البحر ٥ / ٣٣٨ ، وتفسير البيضاوي ٢٦٩/١ .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤) مفاتيح الغيب ٤ / ٣٨٠ .

الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار على طريقة القرآن . (١)

ومما ينبغي ذكره ــ هنا ــ أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ؛ لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة ، ليعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة . أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة ؛ لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة . (٢)

وعلى ذلك فالسواد في الدنيا لصالح السود ، أما في هاتين الآيتين فهما تتحدثان عما سوف نراه في الآخرة ، حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات . وكذلك أمر البياض والسواد، إنه لن يكون سوادا وبياضا من أجل البيئات ؛ ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنساناً آخر كان لونه أبيض في الدنيا ، ثم صار أسود في الآخرة والعكس . (٣)

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله، لا ، إن الله يعطي كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذي يقويه على البيئة التي يحيا فيها ...

فالله (جل وعلا) لا يكره السواد ؛ لأنه حماية للإنسان من البيئة ، على أن هذه الحالة ستتبدل يوم القيامة ، كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما أمر اعتباري ، بدليل أنك ترى واحدًا أبيض اللون ، ولكن وجهه عليه غبرة ، ترهقه قترة، وترى واحدًا أسود اللون ، ولكن

---

(١) في ظلال القرآن : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) تفسير القرآن الكريم للشيخ الشعراوى ١٦٦٧/٣ .

(٣) الرسم بالألوان في القرآن : ٢٥٤ .

نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[1] .

أي : أن ما في داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان، وتظهر ملامحه ، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلي بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة الإنسان في الدنيا إنما هو لمساعدته على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ لا ؛ لأن كل شيء معد لمهمته[2]، بخلاف الآخرة ، نسأل الله (جل في علاه) أن يبيض وجوهنا .

هذا ، وقد اختلف المفسرون في المراد من البياض والسواد يوم القيامة ــ في الآيتين ــ على قولين :

القول الأول : أن البياض كناية عن الفرح والسرور ، والسواد كناية عن الغم ، وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[3] ، ويقال : لفلان عندي يد بيضاء ، أي : جلية سارة ، وتقول العرب لمن نال بغيته ، وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه : الاستبشار والتهلل ، وعند التهيئة والسرور يقولون : الحمد لله الذي بيض وجهك ، ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربد وجهه، واغبر لونه ، وتبدلت صورته .[4]

فعلى هذا معنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه ، بمعنى : استبشر بنعم الله وفضله ،

---

[1] سورة عبس : ٣٨ : ٤١ .

[2] تفسير الشعراوى ١٦٦٨/٣ ، والرسم بالألوان في القرآن : ٥٥٤ ، ٢٥٥ .

[3] سورة النحل : ٥٨ .

[4] مفاتيح الغيب ٤ / ٣٨٠ ، ٣٨١ ، والبحر ٣ / ٢٢ .

وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة ، أسود وجهه ، بمعنى : شدة الحزن والغم ودليله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[1]

فجعل الغبرة والقترة في مقابله الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة المجاز ، لما صح جعله مقابلا ، فعلمنا أن المراد من الغبرة والقترة : الحزن والغم حتى يصح التقابل .

والثاني : يرى جمهور العلماء أن ابيضاض الوجوه واسوادها على حقيقة اللون المعروف . والبياض من النور ، والسواد من الظلمة [2] ، قال الزمخشري : " فمن كان من أهل نور الدين وسم ببياض اللون ، وإسفراره وإشراقه ، وابيضت صحيفته ، وسعى النور بين يديه وبيمينه . ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون ، وكسوفه وكمده ، واسودت صحيفته وأظلمت ، وأحاطت به الظلمة من كل جانب . [3]

---

[1] سورة عبس : ٣٨ ــ ٤٢ .

[2] ينظر : مفاتيح الغيب ٤ / ٣٨٠ ، ٣٨١ ، والبحر ٣ / ٢١ ، ٢٢ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٩٤ .

[3] الكشاف ١ / ٣٠٦ .

وقال الألوسي : " والمراد بالبياض معناه الحقيقي ، أو لازمه من السرور والفرح ، وكذا يقال في السواد ، والجمهور على الأول . قالوا : يوسم أهل الحق ببياض الوجه ، وإشراق البشرة ، تشريفا لهم ، وإظهارا لآثار أعمالهم في ذلك الجمع ، ويوسم أهل الباطل بضد ذلك " . [1]

والظاهر أن الابيضاض والاسوداد يكون في جميع الجسد إلا أنهما أسندا للوجوه ؛ لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه ، وهو أشرف أعضائه . [2]

وأحسب ــ والله أعلم ــ أن الجمع بين القولين أمر مقبول ؛ لأن المؤمن حين يرى بياض وجهه ينعكس ذلك على نفسه ، فيفرح ويسر ويستبشر ، وأن غير المؤمن حين ينظر إلى سواد وجهه ، ينعكس ذلك على نفسه ، فيحزن ويغتم، فالقول الأول لازم القول الثاني .

والظاهر من السياق أن هؤلاء الذين تسود وجوههم ، هم أهل الكتاب ، لكفرهم بعد إيمانهم ، كفرهم برسول الله (ﷺ) بعد الإيمان به قبل بعثته ، وإليه ذهب عكرمة ، واختاره الزجاج ، وجماعة . وقيل : هم الذين كفروا بعد الإيمان بسبب الارتداد . وقيل : الذين كفروا بعد الإيمان بالنفاق [3]. وأحسب أن الآية تشمل هؤلاء جميعًا ؛ وغيرهم من الذين كفروا ابتداء ، والله أعلم .

ثانيا : الأسود :

لون محايد ، يتوافق مع الألوان جميعًا ، فهو مجموعها ، إنه ــ أيضا ــ كالأبيض غيبوبة الألوان ، يشبه الصمت ، حاسم ، يزيد من ضياء وإشراق الألوان الفاتحة ، ويكاد تأثير الألوان القاتمة أن يزول إذا ما وضعت عليه ، وهو لون ماض ، طارد للبرودة . [4]

---

[1] روح المعاني ٤ / ٢٥ .

[2] السابق : المصدر والصفحة .

[3] ينظر : مفاتيح الغيب ٤ / ٣٨٤ ، وروح المعاني ٤ / ٢٦ .

[4] الرسم بالألوان : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

واللون الأسود لا يعكس أي ضوء يقع عليه ؛ لأن الأسود يمتص كل الألوان الضوئية ، والسواد يمنع البصر من الانتشار ، ويقبضه عن الانبساط ، ويكفه عن الإدراك . [١]

واللون الأسود يرمز إلى الحزن عند معظم الشعوب ، ويحمل إحساسًا بالوحشة ، والكآبة والهم والغم ، واستعمله القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [٣]. أي : يصير متغيرًا تغير المغتم ، يقال لمن يقال لقى مكروهًا وقد أسود وجهه غمًا وحزنًا . [٤]

على أن اللون الأسود لا يعني الكآبة والحزن والغم في كل حال ، فهو لون الليل الذي ترتاح فيه النفوس ، وتلجأ إليه من عناء الكد والتعب ، والإرهاق الذي يصاحبها في النهار ، وتسكن فيه بعد ملئ بالنشاط والحركة .

وفي سورة (الضحى) أقسم الحق (جلا وعلا) بـ(الضحى والليل) وهما أصفى آنين من آونة اليوم ، وأشف آنية تسرى فيهما التأملات ، وتتصل الروح بالوجود ، وبخالق الوجود . [٥]

---

[١] الألوان في القرآن (انترنيت) .

[٢] سورة آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧ .

[٣] سورة النحل : آية ٥٨ .

[٤] الألوان ودلالتها في القرآن : ٧٠ ، ٧١ .

[٥] في ظلال القرآن : ٣٩٢٦ .

كما أنه يعبر ــ في الوقت نفسه ــ عن الإحساس بالوقار والاتزان ، كما أنه لون كثير من الحجارة الكريمة ، والخامات النفيسة ، ولون الذهب الأسود (البترول)، والحجر الأسعد (الأسود) ، وكسوة الكعبة ، ورمز للقوة والشباب . [1]

استعمال اللون الأسود وما اشتق في لغة العرب :

وضع لفظ الأسود ــ وما اشتق منه ــ في أصل اللغة للدلالة على اللون المعروف ، وهو نقيض البياض ، قال ابن فارس: " السين والواو والدال أصل واحد ، وهو خلاف البياض في اللون ، ثم يحمل عليه ويشتق منه ، فالسواد في اللون معروف.

وعند قوم : أن كل شيء خالف البياض ، أي لون كان فهو في حيز السواد ، يقال : اسود الشيء ، وسواد كل شيء: شخصه ... ومنه السواد بمعنى العدد الكثير؛وسمي بذلك لأن الأرض تسود له...والقياس في الباب كله واحد". [2] ومنه قول الأعشى :

تَنَاهيتمُ عنا وقد كان فيكمُ

أساودُ صَرْعَى لم يُوَسَّدْ قَتِيلُهَا[3]

فالأساود جمع أسودة ، وأسودة جمع أسود ، ويعني بالأساود : شخوص القتلى . [4]

---

[1] الرسم بالألوان : ٢٦٦ .

[2] المقاييس ٣ / ١١٤ (س و د) .

[3] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ١٣٥ ، والتهذيب ١٣ ، ٣١ .

[4] الصحاح ٢ / ٤٩٢ .

فالسواد عند العرب : الشخص ... وفي الحديث :" إذا رأى أحدكم سوادًا بليل فلا يكن أجبن السوادين ، فإنه يخافك كما تخافه " [1] أي : شخصا . وقيل :

إن هذا الاستعمال (أي: استعمال السواد في معنى الشخص) استعمال مجازي لا على سبيل السواد الحقيقي ، أي اللون المعروف . [2]

ومن السواد بمعناه الحقيقي (اللون المعروف) قول أبى حاتم الطائي :

فَمَا رُمْتُهُ حتى أَزَحْتُ عَوِيصَهُ

وحتى عَلاهُ حَالِكُ اللونِ أَسودُ[3]

وقول الأخطل :

وبيتُ صَفَاةٍ في لَهَابٍ لُعَابُهُ

سَمَامُ المَنَايَا أَسْوَدُ اللونِ حَالِكُ[4]

فحاصل اللفظ قد وضع في الدلالة على اللون المعروف، وكل ما اتصف به، حتى صار صفة غالبة ، فاستعمل استعمال (الأسماء) وجمع جمعها ، حيث يراد به الحية العظيمة ؛ لأن فيها سوادًا ، وهي أخبث الحيات وأعظمها وأنكاها .

– إلا أن العرب لم يقفوا باللفظ عند استعماله في أصله الذي وضع له ، وإنما استعملوه مجازا في معان أخر على سبيل الكناية ، فمن ذلك قولهم : السواد في المال : الكثير ، والسواد من البلد : قراها ، ومن المجاز قولهم : " عليكم بالسواد الأعظم " أي : العدد الكثير من المسلمين تجمعت على طاعة الإمام [5] ، ومنه قولهم: فلان أسود القلب : إذا كان سيء النسيبة ، كما في قول كثير عزة :

---

[1] النهاية لابن الأثير ٢ / ٤٢٠ ، والتاج ٢ / ٣٨٥ (س و د) .

[2] تاج العروس ٢ / ٣٨٥ (س و د) .

[3] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ١١٦ .

[4] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ٢١٦ .

[5] تاج العروس ٢ / ٣٨٥ (س و د) .

وإنْ قــد أصــبتِ القلــبَ منــي بغُلَّــةٍ

وحُبٌّ لــه فــي أســودَ القلــبِ فــادحُ[1]

وقول تأبط شرًا ــ من شعراء العصر الجاهلي ــ :

فقــد شــدَّ فــي إحــدى يديْــه كِنَاتَــةً

تَدَاوَى لَهَا فــي أســودَ القلــبِ قــادِحُ[2]

ــ كما استعمل في صدر الإسلام كناية عن النفاق ، ومنه قول علي (كــرم الله وجهه) :" إن الإيمان يبدأ نقطة بيضاء في القلب ، كلما ازداد الإيمــان ازدادت بياضًا ، حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق يبدأ نقطة سوداء في القلــب ، وكلمــا ازداد النفاق ازدادت سوادًا ، حتى يسود القلب كله ، والذي نفسي بيده لو شــققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض القلب ، ولو شققتم عن قلب منــافق لوجــدتموه أسود القلب " . [3]

ــ كما استعمل اللون الأسود كناية عن الخوف والفزع كما في قول امرئ القيس :

---

[1] البيت من " الطويل " وهو في ديوانه : ٨٦ .

[2] البيت من " الطويل : وينظر في ديوانه : ٢٤ .

[3] تفسير الثعالبي ٣ / ٢١٢ وكنز العمال ١ / ٢٠٨ (حديث رقم ١٧٣٤) .

فـــإن أمْـــسِ مكْرُوبًـــا فَيَـــاربَ بُهْمَـــةٍ

كشفتُ إذا مـــا اســـودَّ وجـــهُ الجَبَـــانِ[1]

وقيل : كناية عن التغير والانكسار ، نظير ذلك قولـــه ــ تعـــالى ــ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [2] قال الشوكاني : " أي : تغير، وليس المراد بالسواد الذي هو ضد البياض ، بل المـــراد الكنايـــة بالـــسواد عـــن الانكسار، والتغير لما يحصل من الغم ، والعرب تقول لكل من لقى مكروهـــا: قـــد اسود وجهه غمًا وحزنًا " . [3]

الأسود في القرآن :

ورد اللون الأسود بمشتقاته سبع مرات في القرآن الكريم: مفردًا ، وجمعًا، ومعرفًا ، ونكرة [4] . وقد استخدمه القرآن الكريم مع اللون الأبيض في قوله (جل وعلا) : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَـــيْطِ الأَسْـــوَدِ مِـــنَ الفَجْرِ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾[6] لما لهذين اللونين من ارتباط شديد بين بعضهما ، وقد سبق بيان ذلك ــ تفصيلا ــ عند الحديث عـــن اللون الأبيض ، كما استخدم القرآن هذا اللون بمفرده ، وهو ما سأفرد له الحديث في الصفحات الآتية :

---

[1] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه : ٨٦ .

[2] النحل : ٥٨ .

[3] فتح القدير ٣ / ١٧٠ .

[4] في سورة البقرة : ١٨٧ ، وآل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧ ، والنحـــل : ٥٨ ، وفـــاطر : ٢٧ ، والزمر : ٦٠ .

[5] سورة البقرة : ١٨٧ .

[6] آل عمران : ١٠٦ .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١) .

أخبر الحق (جل وعلا) في الآيتين اللتين تسبق هاتين الآيتين عن قبائح المشركين ، الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان بغير علم ، ثم أخبر عنهم أن جعلوا الملائكة ــ الذين هم عباد الرحمن ــ إناثًا وجعلوها بنات الله ، فعبدوها معه.

ثم رسم السياق القرآني صورة منكرة ــ في هاتين الآيتين ــ لعادات الجاهلية ، بأنه إذا بشر أحدهم بولادة بنت ظل وجهه مسودًا من الهم والحزن والضيق ، يكظم غيظه وغمه : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾إنه إنحراف العقيدة ، ينشأ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده :﴿ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾قال الخازن : " البشارة : عبارة عن الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ، ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه ، كان كذلك الحزن والغم ، يظهر أثره على الوجه ، وهو الكمودة التي تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم ، فثبت بهذا أن البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار ، والخبر المحزن ، فصح قوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى﴾ (٣).

---

(١) سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٤١/٥ ، وتفسير ابن كثير ٥٧٣/٢ ، وفي ظلال القرآن ٢١٧٨.

(٣) تفسير الخازن ٩٥/٥ .

وقوله تعالى :﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ معناه ، كما قال القرطبي : " وإذا أخبر أحدهم بولادة بنت ظل وجهه متغيرًا " [1] وقد اختلف المفسرون في هذا التغير الذي يصيب الوجه على قولين :

القول الأول : يرى بعض المفسرين : أن المراد من الآية هو سواد اللون حقيقة ، يقول ابن عطية : " وظاهر الآية أن لون وجوههم يتغير ويسود حقيقة"[2].

والثاني : يرى جمهور المفسرين : أنه ليس المراد من سواد الوجوه في الآية السواد الحقيقي ، بل هو كناية عن غمه وحزنه ، وكآبته بالبنت قال الزجاج : " وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت ، والعرب تقول لكل من لقى مكروهًا : قد أسودّ وجهه غمًا وحزنًا " . [3]

وقد فسر الرازي ذلك التغير بقوله : " إنما جعل سواد الوجه كناية عن الغم ؛ وذلك لأن الإنسان إذا قوى فرحه ، وانشرح صدره ، وانبسط روح قلبه من داخل القلب ، ووصل إلى الأطراف ــ ولا سيما إلى الوجه ، لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد ــ وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه ، وتلألأ ، واستنار .

وأما إذا قوى غم الإنسان احتقن الروح من باطن القلب ، ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه ، فلا جرم يربد الوجه ، ويصفر ، ويسود ، ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة ، فلزم أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن لوازم الغم كمودة الوجه ، وغبرته وسواده ؛ فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٤١/٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٩٨/١٤ .

(٣) معاني القرآن وأعرابه ٢٠٦/٣ ، وينظر : القرطبي ٣٨٤١/٥ ، وفتح القدير ١٧٠/٣ عن الزجاج.

كناية عن الفرح ، وغبرته وكموده وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ؛ ولهذا المعنى قال تعالى:﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي:ممتلأ غمًا وحزنًا"[1].

وهذا الرأي ــ من وجهة نظري ــ هو الأرجح ، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير ، وظهور الكآبة والانكسار ، لا السواد الحقيقي ، كما أن العرب قد استعملت كثيرًا ــ كما سبق ــ اسواد الوجه في لون الكئيب : إذ ترهقه غبرة ، فشبهت بالسواد مبالغة ولذا اقتصر على هذا القول جمهور المفسرين . [2]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : ممتلئ غمًا ، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) : حزين ، لا يشكو حزنه ، وقيل : إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم، مأخوذ من الكظامة : وهو شد فم القربة [3] ، وعليه قول الشاعر :

فإنْ أكُ كاظمًا لمصابِ شـــاسٍ فإني اليـــومَ منطلقٌ لساني [4]

وقول الشاعر أيضًا :

فَحَضضتُ قَوْمي واحتسبتُ قِتَالَهُم والقومُ من خوفِ المنايا كُظَّمُ [5]

والمعنى : أن هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الأنثى أن تنسب إليه ، فكيف يرضى أن ينسبها إلى الله تعالى ؟! ففيه تبكيت لهم وتوبيخ [6] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٥٥/٩ ، ٥٥٦ ، وينظر : البحر المحيط ٥٠٤/٥ ، وفتح القدير ١٧٠/٣ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٥٠٤/٥ ، ونظم الدرر للبقاعي ٢٨٠/٤ ، وتفسير البيضاوي ٢٩٣/١ ، وفتح القدير ١٧٠/٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٤١/٥ .

(٤) البيت من "الطويل" في تهذيب اللغة ١/ ٣٣٨ ، ٤٥٠/١٠. والقرطبي ٣٨٨٤/٥ .

(٥) البيت من : في تفسير الخازن ٥/ ٩٦ ،والقرطبي ٥/ ٣٨٨٤.

(٦) تفسير الخازن ٩٦/٥ .

* ــ وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1] .

تتحدث الآية الكريمة عن تقرير الوعيد لمن كذب على الله ــ بمعنى : أنه إذا قصد الإخبار عن الشيء مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول ، ومثال ذلك : كفار قريش ، فإنهم كانوا يصفون الأصنام بالآلهية ، مع أنهم كانوا يعلمون ــ بالضرورة ــ أنها جمادات . [2]

وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ أي : مما أحاط العذاب بهم ، وما شاهدوه من غضب الله ونقمته . [3]

وقرأ بعضهم : " مسوادَّة " وهي لغة أهل الحجاز [4] ، يقولون : اسوادَّ وجهه ، واحمارَّ ، يجعلونه (إفعالَّ) كما تقول للأشهب : قد اشهابَّ ، وللأزرق" قد ازراقَّ ، وقال بعضهم : لا يكون (افعالَّ) في ذي اللون الواحد ، وإنما يكون في نحو : الأشهب ، ولا يكون في نحو : الأحمر ، وهما لغتان . [5]

والظاهر : أن الروية بصرية ، والخطاب : إما لسيد المخاطبين ﷺ وإما لكل من تتأتى منه الرؤية ؛ لأن اعتبار الرؤية بصرية أبلغ في تفضيحهم ، وتشهير فظاعة حالهم، لا سيما مع عموم الخطاب [6].

هذا ، وقد اختلف المفسرون في المراد بالسواد في الآية على رأيين :

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤٦٣/١٣ ، ٤٦٤ (بتصرف) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥٩٢٠/٨ ، وفتح القدير ٤٧٢/٤ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/٢ ولم يشر إلى أنها قراءة .

(٥) معاني القرآن ٦٧٢/٢ .

(٦) روح المعاني ١٩/٢٤ ، وينظر : تفسير الخازن ٨٣/٦ .

الأول : أن يكون اسوداد الوجوه يوم القيامة حقيقة ، جعله الله علامة على سوء المصير كما جعل بياضها علامة على حسن المصير ، قال ــ تعالى ــ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ*وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [1]وهو ظاهر الآية كما يقول ابن عطية ،وأبو حيان ،والألوسي [2].

والثاني : يحتمل أن يكون المراد من سواد الوجوه ــ في الآية ــ ليس السواد الذي ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمهم وحزنهم للمصير الذي يصيرون إليه ، قال ابن عطية : " ويحتمل : أن يكون في العبارة تجوز ، وعبر بالسواد عن أن يراد به وجوههم ، وغالب أمرهم ، وظاهر كآبتهم ... والمتكبر رافع نفسه إلى فوق حقه ، قال النبي ﷺ : " الكبر : سفه الحق ، وغمط الناس"[3] أي : احتقارهم " . [4]

وفسر الرازي سواد الوجوه يوم القيامة ، فقال : " الأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد ، وهو سواد يدل على الجهل بالله ، والكذب على الله ، والجهل ظلمة ، والظلمة تتخيل كأنها سواد ، فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم " [5] .

وسواد الوجه ــ كما يقول الطاهر بن عاشور ــ : " مستعمل في لون الكئيب ؛ إذ ترهقه غبرة ، فشبهت بالسواد ؛ مبالغة " [6] .

---

(١) آل عمران : الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٩٥/١٤ ، والبحر المحيط ٤٣٧/٧ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٩٠/٢ ، ومسلم ــ كتاب الإيمان ــ ٩٣/١ .

(٤) المحرر الوجيز ٩٥/١٤ .

(٥) مفاتيح الغيب ٤٦٥/١٣ .

(٦) التحرير والتنوير ٨٤/١٤ .

وهو الأرجح ــ من وجهة نظري ــ للأسباب التي ذكرتها في سورة النحل .

وهكذا نرى أن الوصف بالاسوداد قد اقترن بالحال النفسية ، بما يعكس (الباطن) أثره على (الظاهر) وأكبر أسباب هذا اللون على الوجه ــ كما يقول بعض الباحثين المعاصرين ــ : " هو الكفر ، والكذب على الله " [1] ، فكان مصيرهم : اسوداد الوجوه من الخزي ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم ؛ جزاء كذبهم على الله ، وتكبرهم في الأرض، الذي دعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف في المصيبة ، فلم يلبوا هاتف النداء ، فهم اليوم ــ يوم القيامة ــ في خزي تسود له الوجوه . [2]

* ــ وقال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [3].

أخبر الحق ــ جلت قدرته وعظمته ــ في الآيات السابقة عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم ، وبعضها لله تعالى ، ثم أنكر عليهم جعلهم الملائكة بنات الله ، ثم ذكر ــ في هذه الآية الكريمة ــ تمام الإنكار ، فقال : " وإذا بشر أحدهم ... " الآية .

والبشارة ــ كما سبق ــ : الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ، ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير الوجه كان الحزن والغم يظهر أثره على الوجه ، وهو الكمودة التي تعلو الوجه عن حصوله الحزن والغم ،

(١) دراسات لغوية في القرآن ١٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ٢٠٥٩ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ١٧ .

فثبت بهذه البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار ، والخبر المحزن ، فصح قوله : "وإذا بشر أحدهم ... " الآية . (١)

والمعنى : وحالهم أنه إذا بشر أحدهم بالأنثى الذي جعلها شبهًا مجانسًا للرحمن ، صار وجهه مسودًا من الغم ، وهو مملوء كربًا وغيظًا ؛ لعدم رضاهم بذلك ، وعَدَّه عارًا لهم ، لكنهم ــ لإجرامهم ــ يرضونه له . (٢)

وهذا الاسوداد إما نتيجة بطلان مثل الذي ضربه ، وإما : مما بشر به من الأنثى، دليله ما ورد في سورة النحل : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٣) ، واسوداد الوجه من شدة الغضب والغيظ ؛ إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد (٤).

ولما كان تغير الوجه ــ لاسيما بالسواد ــ لا يدرك حق الإدراك إلا بالنهار ، عبر بما هو حقيقة في الدوام نهارا ، وإن المراد هنا مطلق الدوام ، فقال تعالى : " ظل وجهه مسودًا " أي : دام شديد السواد ؛ لما يجد من الكراهة الموصلة إلى الحنق بهذه البشارة التي أبانت التجربة عن أنها قد تكون سارة ، وقد تكون غير ذلك . (٥)

وكان من عادات بعض العرب وحالهم أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت له أنثى اغتم ، واربد وجهه غيظًا ، وتأسفًا وهو مملوء من الكرب ، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت له أنثى ، فهجر البيت الذي فيه امرأته ، فقالت :

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا

---

(١) تفسير الخازن ٩٥/٥ .

(٢) لسان الميزان في تفسير القرآن ٩١/١٨ ، وينظر : تفسير ابن كثير ١٢٤/٤ ، ١٢٥ .

(٣) سورة النحل : الآية ٥٨ .

(٤) التحرير والتنوير ١٨٠/٢٥ .

(٥) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٥/٧ .

يظلُ في البيـــتِ الـــذي يَلِينَـــا
أغـــضبانُ ألاَّ نَلِـــدَ البَنِينَـــا
ليسَ لنَا من أمْرِنَـــا مَـــا شِـــينَا
وإنمـــا نَأْخُـــذُ مـــا أُعْطِينَـــا[1]

فإذا كان أحدهم إذا بشر مما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، أفما كان من اللياقة والأدب ــ كما يقول سيد قطب ــ ألا ينسبوا إلى الله منْ يـــستاءون هم إذا بشروا به، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذي يبلغ حـــدًا يجـــل عـــن التصريح به ، يكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟ ! .

أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن ينشأ في الحليـــة والدعـــة والنعومة وألا يقدر على جدال ولا قتال ، على حين هم ــ في بيئتهم ــ يحتفلـــون بالفرسان والمغاويل من الرجال ؟ ! [2].

مما سبق من دراســـة (الأبيـــض والأســـود) يمكننا استخلاص ما يلي :

- أن الأبيض والأسود ليسا لونين ، بل يطلق عليهما محايدات ؛ لأنهما يتوافقان مع الألوان جميعها دون أية استثناءات على الإطلاق ، إنهما غيبوبة الألوان ، وهما درجتان للون واحد ، يبدأ بالأبيض الفاتح ، وينتهي بالأسود ، وبينهمـــا درجات الرمادي ، يبدأ بالرمادي الفاتح جدًا ، القريب من الأبيض ، وينتهـــي

(١) الأبيات من " الرجز " وتنظر في : الجامع لأحكام القـــرآن ٦١١٥/٩ ، وتفـــسير الخـــازن ١٣٢/٦ ، وروح المعاني ٧٠/٢٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٣١٨١ ، وينظر : مفـــاتيح الغيـــب ٨٤/١٤ ، وفـــتح القـــدير ٥٤٩/٤ ، والأساس في التفسير ١٢٨/٩ .

بالرمادي جدًا القريب من الأسود ؛ لذا فإطلاق كلمة اللون عليهما يعد من قبيل المجاز ، والتوسع في التعبير .

- عرف العربي هذين اللونين منذ العصر الجاهلي ، واستخدمهما في شعره على مر العصور ، ووظفهما حيث يجب التوظيف إيجابًا وسلبًا .
- أن اللون الأبيض والأسود لا يكتسبان صفاتهما المتميزة إلا في ضوء ما يعبران عنه ، أو ما يحيط بهما ، فهما يؤثران ويتأثران بما يحيط بهما من ألوان وأشكال .
- أن الأبيض لا ينبثق فجأة ، بل يتدرج شيئًا فشيئًا من سواد الليل ، وهو ما أثبتته البحوث العلمية بالتجربة في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .
- أن اللون الأبيض يرمز إلى النورانية والتلؤلؤ ، كما في المعجزة التي وهبها الله لنبيه موسى ﷺ وهي خروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء .

كما يرمز الأبيض إلى الحزن والغم ،كما في ابيضاض عيني نبي الله يعقوب ، حزنًا وغمًا على فراق ولده .

- أن اسوداد بشرة الإنسان في الدنيا أو ابيضاضها إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة التي يعيش فيها ، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ؛ لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجوده بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف بيئته ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة ؛ لأن بيئته لا تحتاج إلى مثل هذه المادة ، هذا في الدنيا ، وعلى ذلك فالسواد والبياض في الدنيا لصالح كل من الأسود والأبيض ، أما في الآخرة فالسواد ــ عياذًا بالله ــ يعني : الحزن ، والغم ، والكآبة ، لما آل إليه مصير صاحبه ، بخلاف البياض الذي

يعني ــ في الآخرة ــ البشر والسرور والفرح والبشارة بالخير لما يجده من حسن المصير .

- أن اللون الأبيض يرمز إلى الطهر ، والصفاء ، والنقاء ، ولكنه ليس محمودًا في كل حال ، بل قد يكون مذمومًا وغير مستحسن ، كما في ابيضاض العيون من علة أو مرض كما جاء في قصة نبي الله يعقوب ، واللون الأسود يرمز غالبًا إلى الحزن والغم والكآبة عند معظم الشعوب ، وقد استعمله القرآن الكريم بهذا المعنى ، ولكنه في الوقت نفسه هو لون الليل الذي ترتاح إليه النفوس ، وتلجأ إليه من عناء الكد والتعب والإرهاق الذي يصاحبها في النهار ، كما أنه يعبر ــ أحيانًا ــ عن الإحساس بالوقار والاتزان ، كما أنه يرمز أيضًا للقوة والشباب .

- ورد ذكر الأبيض والأسود في خمس عشرة آية في القرآن الكريم ، كما أن مجموع الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الألوان الأساسية ــ أيضًا ــ خمس عشرة آية ، فهل هذا إشارة إلى ما توصل إليه العلم في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين من أن مجموع الألوان الأساسية يساوي الأبيض والأسود ؟! . وهل فيما سبق إشارة إلى وجه جديد يضاف إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لا تعد ولا تحصى ؟! ، أحسب ذلك ، والله أعلم .

المبحث الثاني

الألوان الثانوية (المتداخلة) في القرآن

سبق القول أن الألوان الأساسية الأولية : هي تلك الألوان الصافية التي لا يمكن أن تحصل عليها بمزجها بالألوان الثنائية الأخرى ، وهي ثلاثة باتفاق : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق . وأضاف بعضهم إليها الأخضر ، وقالوا : هي أصل الألوان .

أما الألوان الثانوية أو الثنائية فهي : تلك الألوان التي لا يمكن الحصول إلا بمزج لونين ، أو أكثر من الألوان الأساسية أو المحايدة كالأبيض والأسود . [1]

وإذا كان لون كل شيء : ما فصل بينه وبين غيره ، واللون: سحنة الشيء (هيئته) كالحمرة والسواد، يقال: لونته فتلون، والدخلة في اللون: تخليط ألوان في لون ، ومنه قيل : تلون فلان، أي : اختلفت ألوانه ، أو تغير عن أخلاقه التي كان عليها.[2]

فاللون ــ إذًا ــ يتمثل في هيئة الشيء التي هو عليها، أو الانتقال من وصفه إلى وصف آخر ، محسًا كان أو معنويًا ، وقد يكون اللون مكونًا من ألوان عدة ، متقاربة أو متداخلة .

هذا ، وقد استخدم العرب الألوان ــ كما سبق ــ في كلامهم بأشكالها المختلفة ، وأنواعها المتباينة ، وأطلقوا على كل لون منها نوعًا أو اسمًا خاصًا به بميزه عن غيره ، من ذلك الصهبة : حمرة تضرب إلى البياض ، والكهبة : صفرة تضرب إلى حمرة ، والدكنة لون إلى الغبرة بين الحمرة والسواد . وقالوا للون

---

[1] الألوان ودلالتها في القرآن : ٦١ .

[2] المخصص لابن سيده ٢ / ١١٠ ، وينظر : فقه اللغة للثعالبي :٥٦ فصل في الألوان المتقاربة والمتداخلة ، والمقاييس ٥ / ٢٢٣ (ل و ن) .

بين السواد والغبرة : أطلس،وهو لون الذئب ؛ لأن لونه كلون الرماد ...".[1]

وإذا كان القرآن الكريم قد استعمل الألوان الأساسية والمحايدة ، فإنه قد أشار ــ أيضا ــ إلى الألوان الثانوية أو الثنائية المتداخلة أو المتقاربة ، كـ(الحوة) في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [2] و(الغبرة والقترة) في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾[3] و(الدهمة) في قوله تعالى: "مدهامتان "[4] كما هو مبين بالتفصيل في الصفحات القادمة .

* ــ قال الله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .[5]

الوَشْيُ : خلط لون بلون بقصد تحسين الشيء وتزيينه[6]، وأصله من وَشْيِ الثوبِ : وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته ، يقال منه : وَشَيْتُ الثوبَ . فأنا أشيه شِيَةً ووَشْيًا[7] ، قال الأسود بن يعفر :

---

[1] فقه اللغة للثعالبي : ٥٦ ، ومبادئ اللغة : للإسكافي : ١٢٠ .

[2] الأعلى : ٥ .

[3] عبس : ٤٠ ، ٤١ .

[4] الرحمن : ٦٤ .

[5] البقرة الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .

[6] تهذيب اللغة ١١ / ٤٤٤ ، ومقاييس اللغة ٦ /١١٤ (و ش ى) .

[7] تهذيب اللغة ١١ / ٤٤٤ ، والصحاح ٦ / ٢٥٢٤ (و ش ى) .

حَمَتْهَا رِماحُ الحـــربِ حتـــى تَهَوَلَّـــتْ

بِزَاهِرِ نَـــوْرٍ مثـــلِ وَشْـــيِ النَّمَـــارِقِ[1]

يعني : جميع ألوان الوشي .

ويقولون لحائك الثوب (الخياط) : واشٍ يَشِي الثوبَ وَشْيًا ، أي : نـــسجًا وتأليفًا . [2]

ومن ذلك أخذت الشِّيَةُ ، وهي : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره ، والجمع شِيَاتٌ ، يقال : ثَوْرٌ أَشْيَةٌ ، كما يقال : فَرسٌ أَبْلَقٌ ، وتَيْسٌ أَذْرَأُ . [3]

ثم استعير هذا الحرف للكلام المحسن المزخرف ، فقيل للساعي بالرجل إلى السلطان أو غيره : وَاشٍ ؛ لكذبه عليه عنده وتحسينه كذبه بالأباطيل ، يقال منه : وَشَيْتُ به إلى السلطان وِشَايةً [4] ، ومنه قول كعب بن زهير (رضي الله عنه) :

يَسْعَى الوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا وقَوْلُهُمُ ∴ إنكَ يا ابنَ أبى سُلْمَى لَمَقْتُـــولُ[5]

فالوُشاةِ جمع واشٍ ، يعني : أنهم يتقوَّلون بالأباطيل ، ويخبرونه أنـــه إن لحق بالنبي (صلى الله عليه وسلم) قتله . [6]

---

[1] البيت من " الطويل " وينظر في اللسان ٦ / ٤٨٤٦ ، وتاج العروس ٣٩١/١٠ .

[2] العين ٦ / ٩٨ ، وتهذيب اللغة ١١ / ٤٤٤ (و ش ى) .

[3] الصحاح ٦ / ٢٥٢٤ (و ش ى) .

[4] جامع البيان للطبري ١ / ٨١ ، وأساس البلاغة ٢ / ٥٠٩ .

[5] البيت من " البسيط " في ديوانه : ٦٥ ، وجامع البيان ١ / ٤٨١ .

[6] جامع البيان ١ / ٤٩٩ .

وعلى ذلك فقوله تعالى : ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي : ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، فهي صفراء كلها ، لا بياض فيها ولا حمرة ولا س،واد ، كمال قال ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ أي : خلصت صفرتها عن أخلاط سائر الألوان . (١)

وأصل (الشِيَة) : وَشِيَ ، حذفت الواو ، كما حذفت من يَشِي ، والأصل : يَوْشِي ، ونظيره : الزِنَة ، والعدة ، والصلة. (٢) وقيل : ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي : لا وَضَحَ فيها بلغة أزد شنوءة ، ولونها لون واحد (٣) . وهذا التفسير لا يخرج عن المعنى الأول ؛ لأن الوَضَحَ : لون يخالف سائر الجسد ، ومنه بياض الصبح ، والقمر والبرص ، والغرة والتحجيل في القوائم ، وغير ذلك من الألوان (٤) ، والله أعلم .

والآية الكريمة جزء من حكاية القرآن الكريم عن بقرة بني إسرائيل في تعنتهم وعنادهم ، ومراجعتهم مرة بعد مرة ، وقد سبق تفصيل ذلك . (٥)

* ــ وقال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ . (٦)

تدل الكلمة في اللغة على تلوين شيء بلون ما ، يقال : صَبَغَ الثوبَ يصبغهُ صبغًا : إذا غيَّرَ لونه ، وأزاله عن حاله إلى حال سوادٍ أو حُمرةٍ أو صُفرةٍ . (٧)

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء ١ / ٤٨ ، ومفاتيح الغيب ٢ / ١٦٩ ، والبحر المحيط ١ / ٢٥٧ ، وفتح القدير ١ / ٩٨ ، يراجع من هذه الدراسة .

(٢) جامع البيان ١ / ٤٩٩ ، وزاد المسير ١ / ٨٤ ، والقرطبي ١ / ٤٩٠ .

(٣) زاد المسير ١ / ٨٤ ، والتبيان في تفسير القرآن للطوسي ١/٣٠٠ .

(٤) الصحاح ١ / ٤١٦ ، واللسان ٦ / ٤٨٥٥ (و ض ح) .

(٥) يراجع : من هذه الدراسة .

(٦) البقرة : آية ١٣٨ .

(٧) الصحاح ٤ / ١٣٢٢ ، واللسان ٤ / ٢٣٠٥ (ص ب غ) .

قال تعالى : ﴿ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [1] قال الفراء : " يقول: الآكلون يصطبغون بالزيت ، فجعل الصبغ الزيت نفسه"[2] وقال الراجز :

* تَزَجَّ من دُنْياكَ بالبلاغِ *
* وبَاكِرِ المغْدةَ بالدِّبَاغِ *
* بِكِسْرَةٍ لَيِّنَةِ المَضَاغِ *
* بالمِلحِ أو ما خَفَّ من صِباغِ * [3]

ومن المجاز قولهم : الأَصْبَغُ من الخيلِ : الذي ابْيَضَّتْ ناصيته ، أو ابْيَضَّت أطراف ذَنَبِه ، والصَّبْغَاءُ من الشَّاءِ : التي ابيضَّ طرف ذَنَبِهَا ، وصبَغَتِ الرطبة ، وذنبت ، كما تقول : لونت ، كل ذلك على سبيل الاستعارة أو التشبيه بالشيء يصبغ طرفه . [4]

ومن الانتقال من المحس إلى المعنوي عن طريق المجاز أيضا قولهم : قد صبغُوني في عينك ، أي : غيَّروني عندك بإساءة قولهم فيَّ ، أو أخبروا أني قد تغيَّرتُ عما كنت عليه [5] . كأنه انتقل من لون إلى لون عن طريق الاستعارة ، قال الشاعر :

دعِ الشرَ وانزلْ بالنجاةِ تحرُزًا
إذا أنتَ لم يَصبِغْكَ في الشرِّ صَابِغُ
ولكنْ إذا ما الشرُّ أرْخَى قِنَاعَهُ
عليكَ فَجَوِّدْ دَبْغَ مَا أنتَ دَابِغُ[6]

---

[1] المؤمنون : الآية ٢٠ .
[2] معاني القرآن ٢ / ٢٣٣ .
[3] الأبيات من " الرجز " وتنظر في : الصحاح ٤ / ١٣٢٢ ، واللسان ٤/٢٣٩٥.
[4] مقاييس اللغة ٣ / ٣٣١ ، والصحاح ٤ / ١٣٢٢ ، وأساس البلاغة ٢ / ٤ (ص ب غ) .
[5] أساس البلاغة ٢ / ٤ ، واللسان ٤ / ٣٩٦ (ص ب غ) .
[6] البيتان من " الطويل " وهما في أساس البلاغة ٢ / ٤ .

أي : إذا لم يدخلك فيه مدخل ، ولم يغمسك غامس. [1]

وفي قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ قال المفسرون : صبغة الله ، أي : دين الله ، وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء ، وهو الذي يسمونه (المعمودية) ، ويقولون : هذا تطهير لهم ، مكان الختان ؛ لأن الختان تطهير ، فإذا فعلوا ذلك ، قالوا : الآن صار المولود نصرانيًا حقًا ، فرد الله عليهم ذلك بأن قال : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: صبغة الله أحسن صبغة ، وهي الإسلام ، فسمي الدين صبغة استعارة ومجازًا ، من حيث تظهر أعماله ، وسمته على المتدين ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[2] ، وفي ذلك يقول بعض شعراء ملوك همدان :

وكُلُّ أُنَاسٍ لهم صِبْغَة
وصِبْغَةُ هَمْدَانَ خَيْرُ الصِّبَغْ
صَبَغْنَا على ذاكَ أَبْنَاءَنَا
فأكرِمْ بصبغتنا في الصبغْ [3]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾[4] فالصبغ ــ هنا ــ :

---

[1] اساس البلاغة ٤/٢ (ص ب غ) .

[2] ينظر :جامع البيان ١ / ٧٩٢ ، وزاد المسير ١ / ١٣٥ ، والقرطبي ١ / ٦٣٥.

[3] البيتان من " المتقارب " وهما في القرطبي ١ / ٦٣٥ ، وفتح القدير ١ / ١٤٨ .

[4] المؤمنون : ٢٠ ، والمقصود : شجرة الزيتون .

ما يصبغ به من الخبز ويؤكل ، أي : الإدام . [1]

والآية الكريمة توضح أن صبغة الملة الحنيفية هي صبغة الله، وإذا كانت صبغة الله ، فلا صبغة أحسن منها ، وأن تأثير هذه الصبغة هو ظهورها عليهم بعبادة الله تعالى ، فقال : " ونحن له عابدون " . [2]

* ــ وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ . [3]

تحدث الحق ــ سبحانه وتعالى ــ في هذه الآية عن مرحلة من مراحل خلقه الإنسان ، بدليل قوله (تعالى) في آية أخرى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ فهو إخبار عن خلقه النوع وظهوره في الأرض ، وهو آدم عليه السلام ، وأصل آدم كان من تراب ، وذلك قوله : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [4] ثم جعل التراب طينًا ، وذلك قوله : ﴿ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [5] ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى، وذلك قوله﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ثم ترك حين جف ، وذلك قوله : ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ فهذه الأقوال لا تناقض فيها ؛ إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة . [6]

---

[1] يراجع : من هذه الدراسة .

[2] البحر المحيط ١ / ٤١٧ .

[3] الحجر : الآية ٢٦ .

[4] آل عمران : الآية ٥٩ .

[5] الأعراف : الآية ١٢ .

[6] مجمع البيان للطبرسي ١٤ / ٢٤ ، والقرطبي ٥ / ٣٧٤٥ ، ولسان الميزان ١٣/١٤٩ ، ١٥٠ .

وقوله (تعالى) : ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ أي : الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار [1] ، وهو قول أكثر المفسرين ، ومنه قول الأعشى :

عَنْتَرِيسٌ تَغْدُو إذا مسَّهَا الصَوْ

تُ كعَدْوِ المُصَلْصَلِ الجوالِ [2]

وقال مجاهد : هو الطين المنتن ، واختاره الكسائي ، قال : وهو من قول العرب : صَلَّ اللحم وأَصَلَّ : إذا أنتن ــ مطبوخًا أو نيئًا ــ يَصِلُّ صُلُولًا ، قال الحطيئة :

ذاكَ فتىً يَبذُلُ ذا قِدْرَهُ

لا يُفْسِدُ اللحمَ لديهِ الصُّلُولُ[3]

وقوله (تعالى) : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ الحما والحمأ في كلام العرب : السواد ، يقولون : أحمومي الشيء فهو محموم : اسود ، قال الخليل : يوصف به الأسود من نحو الليل والسواد " [4] . وقال الأصمعي : " المُحْمَومَي من السحاب : الأسود المتراكم "[5] قال الشاعر :

تَألَّقَ واحْمَومَي وخَيَّمَ بالرُّبَى

أَحَمُّ الذُّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتَراكِبِ[6]

---

[1] الصحاح ٥ / ١٧٤٥ (ص ل ل) عن أبى عبيدة .

[2] البيت من " الخفيف " وينظر في : القرطبي ٥ / ٣٧٤٤ ، وديوانه : ١٦٥ .

[3] البيت من " السريع " وينظر في الصحاح ٥ / ١٧٤٥ ، والقرطبي ٥ / ٣٧٤٥

[4] العين ٣ / ٣١٢ (ح م و) .

[5] تهذيب اللغة ٥ / ٢٧٢ ، والصحاح ١ / ٤٥ (ح م أ) ، (ح م ا) .

[6] البيت من " الطويل " وينظر في اللسان ٢ / ١٠١٦ ، والتاج ١٠ / ١٠٠ .

ومنه الحَمَأُ : وهو الطين الأسود ، وكذلك الحَمْأَةُ ــ بالتسكين ــ تقول منه:حَمَأْتُ البئر حَمْـًا : إذا نَزَعْتَ حَمْأَتَهَا ، وحَمِئَتِ البئرُ حَمْـًا ــ بالتحريك ــ : إذا كثرت حَمْأَتُهَا ، وأَحْمَأْتُها إحماءً : ألقيتُ فيها الحَمَأَة [1] . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [2] ، وقرأ ابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي : " حَامِيَةٍ " بغير همز ، بمعنى: حارة ، وقد تكون حارة ذات حمئة أيضًا . [3]

وقوله : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي : متغير ، قال ابن عباس : "هو التراب المبتل المنتن " فجعل صلصالًا كالفخار ، ومثله قول مجاهد وقتادة ، ومنه قولهم : قد أَسَنَّ الماءُ : إذا تغيَّر ، وقال أبو عبيدة: المسنُون : المصبوبُ ، وهو من قول العرب : سَنَنْتُ الماء وغيره على الوجه : إذا صَبَبْتَهُ ، وعن ابن عباس : الرَّطْبُ ، وهو بمعنى المصبوب ؛ لأنه لا يكون مصبوبًا إلا وهو رطب . [4]

وعلى ذلك فالآية الكريمة تصور مرحلة من مراحل بدء خلق الإنسان ، فكان أولًا ترابًا ، أي متفرق الأجزاء ، ثم صار طينًا ، ثم ترك حتى أنتن فصار حَمًا مَسْنُونًا ، أي : متغيرًا ، ثم يبس فصار صلصالًا ، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون [5] ، ثم صار الصلصال كالفخار ، لقوله (تعالى) : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [6] وهو الصلصال إذا طبخ .

والله ــ سبحانه وتعالى ــ قادر على خلقه من أي جنس كان ، بل هو قادر على خلقه ابتداء ، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة ، أو لما فيه من

---

[1] الصحاح ١ / ٤٥ ، واللسان ٢ / ٩٨٦ (ح م أ) .

[2] الكهف : الآية ٨٦ .

[3] القرطبي ٦ / ٤٢١٨ ، واللسان ٢ / ٩٨٦ (ح م أ) .

[4] القرطبي ٥ / ٣٧٤٥ ــ ٣٧٤٦ ، واللسان ٣ / ٢١٢٥ ، ٢١٢٦ (س ن ن) .

[5] القرطبي ٥ / ٣٧٤٥ ، وفتح القدير ٣ / ١٣٠ .

[6] الرحمن : الآية ١٤ .

دلالة الملائكة ومصلحتهم ، ومصلحة الجن ؛ لأن خلق الإنسان من هـذه الأمـور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه . [١]

* ــ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .[٢]

لما ذكر الحق (سبحانه وتعالى) كفر الكافرين فيما مضى من آيات ، وعجزهم وعجز أصنامهم ، ذكر قدرته الباهرة ، وخلقه البديع ؛ ليستدل بذلك على وحدانيته .

والمعنى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع ؛ فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله . [٣]

قوله تعالى : ﴿ شِهَابٌ ﴾ أي : كوكب مضيء ، والشين والهاء والباء أصل واحد يدل على بياض في شيء من سواد ، لا تكون الشُّهْبَة خالصة بياضًا ، من ذلك : الشهبة في الفرس : هو بياض يخالطه سواد [٤] . ويقولون : اشْهَابَّ رأس فلان : إذا غلب بياضه سواده [٥] . قال امرؤ القيس :

قالـــتِ الخنـــساءُ لمـــا جئتُهَـــا

شَـــابَ بعـــدي رأس هـــذا واشْـــهَبّ[٦]

والشَّوْهَبُ : القَنْفَذُ ، سمي بذلك للونه . [٧]

---

[١] مفاتيح الغيب ٩ / ٤١٤ ، ٤١٥ .

[٢] الحجر :: الآيات ١٦ ــ ١٨ .

[٣] القرطبي ٥ / ٣٧٣٣ ، وفتح القدير ٣ / ٢٥ .

[٤] مقاييس اللغة ٣ / ٢٢٠ (ش هـ ب) .

[٥] العين ٣ / ٤٠٣ (ش هـ ب) .

[٦] البيت من " الرمل " وينظر في ديوانه : ٢٩٣ ، وأساس البلاغة ١ / ٥٠١ .

[٧] الصحاح ١ / ١٥٩ ، واللسان ٤ / ٢٣٤٧ (ش هـ ب) .

ثم توسعوا في دلالة الكلمة عن طريق المجاز بالاستعارة ، فقالوا : يومٌ أشهبُ أي : ذو ريح باردة ، وليلة شَهْبَاءُ كذلك؛ لأن البرد فيها يغير ألوان الشجر [١] ، وسنة شَهْبَاء : جدبة لا مطر فيها ، فهي مرادفة لقولهم : سنة غبراءُ ، قال الشاعر :

* إذا السَنَةُ الشَّهْباءُ حلَّ حرامُها * [٢]

أي : حلت الميتة فيها . [٣]

ومن ذلك ــ أيضا ــ قولهم : كتيبة شهباءُ ؛ لما فيها من بياض السلاح في خلال سواده ، ومنه : اشهابَّ الزرع : إذا هاج وفي خلاله خضرة قليلة [٤] ، وقال الأزهري : " سمعت غير واحد من الأعراب يقول للبن الممزوج بالماء : شِهَابٌ " [٥] ، وإنما سمي بذلك ؛ لأن ماءه قد كثر فصار كالبياض الذي يخالطه لون آخر . [٦]

والشِّهَابُ : شعلة من نار ، والجميع الشُّهُبُ والشُّهْبَانُ؛ لأنه بياض أو ضوء في خلال السواد أو الظلام [٧]. ثم استعاروه للرجل الماضي في الحرب ، فقالوا : فلان شهابُ حربٍ ، وهؤلاء شُهْبَانُ الجيشِ ؛ وذلك إذا كان معروفًا فيها مشهورًا كشهرة الكواكب اللوامع [٨] ، قال ذو الرمة :

إذا عَمَّ دَاعِيهَا أَتَتْهُ بِمَالِكٍ

وشُهْبَانِ عمروٍ كلُّ شَوْهَاءُ صِلْدِمِ [٩]

---

[١] العين ٣ / ٤٠٣ ، والصحاح ١ / ١٥٩ (ش هـ ب) .

[٢] عجز بيت من " الطويل " للفرزدق فى ديوانه ٥٢٣ ، وينظر في : تهذيب اللغة ٦ / ٨٨ ، واللسان ٤ / ٢٣٤٧.

[٣] السابقان : المصدر والصفحة (ش هـ ب) .

[٤] العين ٣ / ٤٠٣ ، ٤٠٤ (ش هـ ب) .

[٥] تهذيب اللغة ٦ / ٨٨ (ش هـ ب) .

[٦] مقاييس اللغة ٣ / ٢٢٠ (ش هـ ب) .

[٧] العين ٣ / ٤٠٤ (ش هـ ب) .

[٨] المقاييس ٣ / ٢٢١ ، وأساس البلاغة ١ / ٥٠١ (ش هـ ب) .

[٩] البيت من " الطويل " وينظر في ديوانه ٢ / ١١٨٥ ، وأساس البلاغة ٥٠١ .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[1] وسمي ثاقبًا لأنه يثقب بنوره الهواء . أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ أي : شعلة نار في رأس عود ؛ وسمي الكوكب شهابًا لبريقه ، يشبه النار ، وقيل : شهاب كشعلة من نار ، قبس لأهل الأرض ، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت ، كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب ، فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . [2]

هذا ، ويلاحظ من تفسير الآيات الثلاث أن الشهاب فيها لا يخرج عما قاله أهل اللغة فيه ، ولا ننسى جمال الحركة في المشهد ، في رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهي من بدائع التصوير في هذا الكتاب العزيز . [3]

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " كان للشيطان مقاعد في السماء ، فكانوا يستمعون الوحي ، وكانت النجوم لا تجري ، وكانت الشياطين لا ترمى ، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة تسعًا ، فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قصد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه .." . [4]

* ــ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . [5]

---

[1] الصافات : الآية ١٠ .

[2] ينظر : القرطبي ٥ / ٣٧٣٤ ، ٣٧٣٥ ، ٨ / ٥٧٠٦ ، ومفاتيح الغيب ٩ / ٤٠١ ، وفتح القدير ٤ / ٣٨٧ .

[3] في ظلال القرآن ٢١٣٣ .

[4] تفسير ابن كثير ٤ / ٣ .

[5] فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

ينبه الحق ــ سبحانه وتعالى ــ كما سبق ذكره ــ هنا على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، وأبيض إلى غير ذلك ، وكذلك الجبال مختلفة الألوان كما هو مشاهد من بيض ، وحمر ، وغرابيب سود . [1]

و(غَرَابِيبُ) جمع غِرْبِيبٍ ، والغربيب : اسم الشيء الأسود الحالك سواده ، ولا تعرف العرب له مادة مشتق هو منها ، وأحسب أنه مأخوذ من الجامد ، وهو (الغُرَابُ) لشهرة الغراب بالسواد ... فالغربيب يدل على أشد من معنى السواد.[2]

والعرب تقول للشديد السواد ، الذي لونه كلون الغراب: أسود غربيب قال الجوهري : " وتقول : هذا أسودُ غِربيبٌ ، أي : شديد السواد . فإذا قلتَ : غرابيب سود ، تجعل السواد بدلًا من غرابيبَ ؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم " . [3]

وفي الحديث عن النبي (ﷺ) قال:"إن الله يبغض الشيخ الغِرْبِيبُ " . [4]

أراد : الذي لا يشيب . وقيل:الذي يسود شعره،أي: يخضبه بالسواد . [5]

وعلى هذا ، فاللفظ في أصل وضعه قد وضع في الدلالة على اللون الأسود الحالك ، أو الشديد السواد ، وبه ورد في قول امرئ القيس :

العينُ طامحةٌ ، واليدُ سابحةٌ ∴ والرِجْلُ لافحةٌ ، والوجهُ غِربيبُ[6]

---

(1) يراجع:﴿٩﴾ من البحث ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٣ .

(2) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

(3) الصحاح ١ / ١٩٢ (غ ر ب) .

(4) النهاية ٣ / ٣٥٢ (غ ر ب ب) .

(5) السابق : واللسان ٥ / ٣٢٣٠ (غ ر ب) .

(6) البيت من " البسيط " في ديوانه : ٢٢٦ ، والقرطبي ٨ / ٥٦١٥ .

كذا يوصف به الجمل قال أبو زيد : من السواد : الغربيب، يقال : جمل غربيب : وهو أشدها سوادًا . لا تشركة صغيرة وغيرها ، وقالوا : أسود غُرَابي ، نسب سواده إلى الغراب".[١]

كما يوصف به نوع من العنب ، قال أبو حاتم : " الغربيب : ضرب من العنب بالطائف ، أشد العنب سوادًا ، وهو أرقه وأجوده " [٢] . وعليه قول الشاعر ـ يصف كرمًا ـ :

ومِنْ تَعَاجِيبِ خَلْقِ اللهِ غَاطِيةٌ ∴ يُعْصَرُ منها مُلاحِيٌّ وغربيب[٣]

وهاتان الآيتان من آيات الإعجاز العلمي المتعلقة بالماء ، فقد ورد اختلاف الألوان في ثلاث فقرات في هاتين الآيتين ، وفي بحث علمي قد ثبت أن ألوان الصخور هي نتاج ألوان المعادن المكونة لها ، وأن ألوان المعادن نتاج تركيبها العنصري وبيئتها ، وتفاعلها مع الماء ، فالماء هو العامل الحاسم في تلوين صخور الجبال ، التي تأخذ ألوانها من ألوان معادنها التي تشترك في بيئتها، والمعادن تتلون بقدر أكسدتها ، حيث إن الماء له علاقة وطيدة بهذه الأكسدة ؛ كذلك نجد أن أحد عوامل تلوينها ، واختلاف ألوانها ، من جبال كالغرابيب السود،وجبال جدد بيض ، وحمر مختلف ألوانها ، يعود إلى الماء . [٤]

وهذا البحث العلمي يكشف عن جانب من إعجاز القرآن العلمي ، من أجل أن نعلم علم اليقين أن الذي أنزل هذا القرآن هو الذي خلق الألوان ، وأن هذا التوافق بين معطيات العلم ، وبين معطيات الوحي هو منطقي إلى درجة قطعية .

---

[١] البارع في اللغة : ٣٠٣ (غ ر ب) .

[٢] البارع في اللغة : ٣٠٣ (غ ر ب) .

[٣] البيت من "البسيط " وينظر في القرطبي ٥٦١٥/٨ ، واللسان ٢٥٧٣/٥ (غ ط ى) .

[٤] علاقة الماء بالصخور (بحث عن الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة للدكتور الشيخ / راتب النابلسي (انترنت)

* ــ وقال ــ تعالى ــ : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ . [1]

كلمة (مَرَجَ) عربية فصيحة ، وقد وردت مع مشتقاتها في الشعر القديم، وفي القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف ، مجردة تارة ، ومزيدة بالهمزة تارة أخرى ، أي : من باب (فَعَلَ وأفعل باتفاق المعنى) . [2]

وقد عزا الألوسي (رحمه الله) الصيغة المجردة إلى أهل الحجاز ، والمزيدة إلى أهل نجد ، فقال : " مَرَجَ لغة أهل الحجاز، وأَمْرَجَ لغة نجد " . [3]

كما ورد الفعل المجرد (مَرِجَ) بفتح العين وكسرها ، فقيل: " هما من باب (فَعَل وفَعِل باختلاف المعنى) فـ(مرج) بالفتح ، بمعنى:أرسل ، و(مرج) بالكسر بمعنى : قَلِقَ ". [4] وقيل:هما بمعنى واحد، أي : قلق ، والكسر أعلى ".[5]

ولعل هذا هو الأرجح ؛ لأن بين القلق والإرسال تقاربًا في المعنى ؛ إذ الإرسال مجيء وذهاب معًا ، وهذا يدل على القلق والاضطراب ، وبدليل أن ابن فارس أرجع المادة ومشتقاتها إلى أصل معنوي واحد ، لا إلى أصلين ، فقال : " الميم والراء والجيم أصل واحد صحيح ، يدل على مجيء وذهاب واضطراب.." [6]

أما عن دلالتها فقد وردت في اللغة بمعان كثيرة ، أهمها: المرج : الفضاء، وقيل : المرج أرض ذات كلأ ترعى فيها الدواب ، والجمع مُروجٌ ، ومَرَجَ الدابة يمرُجها مَرجًا : إذا أرسلها ترعى في المرج ، وأَمْرَجَها : تركها تذهب حيث شاءت.. ومرِج العهد والأمانة والدين : فسد ، قال أبو دؤاد :

---

[1] الرحمن : ١٤ ، ١٥ .

[2] الصحاح ١ / ٤٧١ (عن الأخفش) واللسان ٦ / ٤١٦٩ (م ر ج) .

[3] روح المعاني ١٤ / ١١٩ .

[4] إصلاح المنطق : ٧٨ .

[5] المخصص لابن سيده ٣ / ٣٤٧ .

[6] المقاييس ٥ / ٣١٥ (م ر ج) .

مَـرِجَ الـدينُ فأعـددتُ لـه ∴ مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُـوكَ الكتـد[1]

والمارج : الخلطُ ، والمارِج : الشعلة ذات اللهب الشديد".[2]

والمرجُ : الفتنة المشككة ، والمرج : الفساد ، وفي الحديث: (كيف أنـتم إذا مرِج الدين ؟) أي : فسد ، وقلقت أسبابه .[3]

أما أصل الدلالة فقيل : هو القلق ، كما ذكر الأزهري، وابن منظـور [4] ، وقيل : الإرسال كما ذكر الطاهر بن عاشور ، قال : " المرج لـه معـان كثيـرة ، وأولها في الكلام : أنه الإرسال"[5] وقيل : هو الخلط ، كمـا ذكـر الأصـفهاني ، والطبري[6] ، وقيل: هو الإرسال والخلط ، وقيل : هو الحركـة والاضـطراب ، أو الاختلاط والاضطراب [7] ، وكلها كما ذكر ابن فارس ــ ترجع إلى مجيء ، وذهاب ، واضطراب .

ــ أما استعمال المشتق (مارِج) في الدلالة على الألوان ، فذلك في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّـن نَّارٍ ﴾ فالمفسرون يذكرون أن اللفظ (مارج) قد استعمل في أصل معنـاه ؛ وهـو الخلط ، يقول الطبري : " وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ " وهو ما اخـتلط بعـضه ببعض ، من بين أحمر ، وأصفر ، وأخضر ، من قولهم :مَـرِجَ أمـر القـوم : إذا

---

(1) البيت من " الرمل " وينظر في : إصلاح المنطق : ٧٨ ، والصحاح : ٣٤١/١ (م ر ج) .

(2) المحكم ٣ / ٢٩٨ (م ر ج) .

(3) النهاية ٤ / ٣١٤ ، واللسان ٤١٦٩ (م ر ج) .

(4) تهذيب اللغة ١١ / ٧٢ ، واللسان ٦ / ٤١٧٩ (م ر ج) .

(5) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٣٢ .

(6) المفردات : ٤٦٥ ، وجامع البيان ١٩ / ٢٨١ .

(7) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٩٠ ، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي ٢٠٣/١٢ .

اختلط ، ومنه قول النبي (ﷺ) لعبد الله بن عمرو : " كيف بك إذا كنتَ في حُثَالةٍ من الناس ، قد مرِجت عُهودهم وأماناتُهم "[1] وذلك هو لهب النار ، ولسانه " [2].

ويقول ابن عادل الدمشقي : " المارِج : ما اختلط من أحمر ، وأصفر ، وأخضر ، وهذا مشاهد في النار ، ألا ترى الألوان الثلاثة مختلطًا ببعضها ببعض " . [3]

ويقول القرطبي : " المارج : اللهب عن ابن عباس ، وقال: خلق الجان من خالص النار ، وعنه ــ أيضا ــ فيختلط بعضه ببعض : أحمر ، وأصفر ، وأخضر ، ونحوه مجاهد ، وكله متقارب المعنى " . [4]

وعلى هذا فاستعمال اللفظ (مارج) في الدلالة على الألوان المختلطة هو من قبيل استعمال اللفظ في أصل معناه ، أو في معناه الحقيقي ، وهو الإرسال والخلط ، قال القشيري : "والمارج في اللغة : المرسل أو المختلط ، وهو (فاعل بمعنى مفعول) : كقوله : " مَاءٍ دَافِقٍ "[5] و " عَيشَةٍ رَاضِيةٍ " [6] والمعنى : ذو مرج " [7] . وليس من قبيل المجاز ، كما ذكر الزمخشري والزبيدي . [8]

ويروى أن الله ــ تعالى ــ خلق نارين ، فمرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى ، وهي نار السموم ، فخلق منها إبليس . [9]

---

[1] النهاية ٤ / ٣١٤ (م ر ج) .

[2] جامع البيان ٢٢ / ٢٥ ٢٦ .

[3] اللباب في علق الكتاب ١٥ / ٣٨ .

[4] الجامع لأحكام القرآن ٩ :/ ٦٥٦١ .

[5] الطارق : ٦ .

[6] الحاقة : ٢١ ، والقارعة : ٧ .

[7] اللباب في علوم الكتاب ١٥ / ٣٨ ، والقرطبي ٩ / ٦٥٦١ .

[8] أساس البلاغة ٢ / ٣٧٥ ، وتاج العروس ٢ / ٩٩ (م ر ج) .

[9] الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٦٥٦١ .

* ــ وقال تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ ﴾ . [1]

تحدث الحق في آيات سابقة عن جنتين لمن خاف مقام ربه بين يدي الله (عز وجل) يوم القيامة ، ونهى النفس عن الهوى في الدنيا ، وقد وصف النبي (ﷺ) هاتين الجنتين فقال : " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما " .

وذكر الحق ــ هنا ــ جنتين دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة ، والأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين . وقال ابن زيد : إن الأولين من ذهب للمقربين ، والآخريين من ورق لأصحاب اليمين . [2]

وقوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ يعني : خضراوان من الري ناعمتان ، إذا اشتدت الخضرة ضربتا إلى السواد . [3]

قال الخليل : الأَدْهَمُ : الأسودُ ، وبه دُهْمَةٌ شديدةٌ ، وادْهَامَ الزرعُ : إذا علاه السواد ريًا ... ودَهَمَهُمُ الأمر ، أي: غشيهم فاشيًا [4] . وقال ابن فارس " الدال والهاء والميم أصل يدل على غشيان الشيء في ظلام ، ثم يتفرع فيستوي الظلام وغيره ، يقال : مردهم من الليل ، أي : طائفة . والدُّهْمَةُ : السوادُ ، والدُّهَيْمَاءُ ، تصغير الدهماء : وهي الداهية ؛ سميت بذلك لإظلامها ، ومن الباب : الدُّهْمُ : العدد الكثير .. " . [5]

---

[1] الرحمن : الآيات ٦٢ ــ ٦٤ .

[2] تفسير القرطبي ٩ / ٦٥٧٦ ، ٦٥٨٣ ، وابن كثير ٤ / ٢٧٦ ، ٢٧٩ .

[3] تفسير مجاهد ٢ / ٦٤٣ ، وتفسير القرطبي ٩ / ٦٥٨٤ .

[4] العين ٤ / ٣١ (د هـ م) .

[5] المقاييس ٢ / ٣٠٧ (د هـ م) .

فالخليل يشير بقوله السابق إلى دلالة الكلمة الأصلية ، وهي الدلالة على مطلق السواد ، من ذلك قولهم : ملوك الخيل دُهمها [1] ، وأدهمَّ الفرسُ ادْهِمَامًا ، أي صار أدْهَمَ ، وادهامَّ الشيء إدهمامًا ، أي : اسوادَّ . [2]

ومن هذه الدلالة ما روى عن الأصمعي أنه قال : إذا اشتدت وُرْقَةُ البعير لا يخالطها شيء من البياض فهو أدهم ، وناقة دهماء ، وفرس أدهم بهيم : إذا كان أسود بهيمًا لا شية فيه . [3]

وهذه الدلالة في كلام العرب تفيد التخصيص ، أي : الدلالة على غشيان الشيء الأسود خاصة شيئًا آخره غيره .

أما ابن فارس فيذكر التعميم الدلالي للكلمة ، يلحظ ذلك من قوله : " ثم يتفرع فيستوي الظلام وغيره " وأن هذا التعميم قد نشأ من انتقال الكلمة من الحقيقة إلى المجاز ، ومن الحسي إلى المعنوي عبر مراحل التطور ، وكثرة الاستعمال .

فمن المجاز قولهم : ادْهَامَّتِ الروضةُ ، أي : اخضرتْ ، وادهامَّ الزرع : علاه السواد ، وحديقة دَهْمَاءُ : مُدْهامةٌ خضراءُ تضرب إلى السواد . [4]

كل ذلك على الاستعارة والتشبيه ، أي : تشبيه اللون الأخضر ، في غشيانه للأرض ، وكتمته باللون الأسود ، لعلاقة المجاورة ؛ لأن الخضرة إحدى الألوان من البياض والسواد ، وهي إلى السواد أقرب ؛ ولهذا سمي الأسود في كلام العرب أخضر ، والأخضر أسود ، ومنه قيل : سواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة [5] ، قال الشاعر ــ في إطلاق الخضرة على السواد ــ :

---

[1] المحكم والمحيط الأعظم ٤ / ٤٧٣ ، وأساس البلاغة ١ / ٢٩ (د هـ م) .

[2] الصحاح ٥ / ١٩٢٤ (د هـ م) .

[3] الصحاح ٥ / ١٩٢٤ ، واللسان ٢ / ١٤٤٣ (د هـ م) .

[4] المحكم ٤ / ٢٧٣ ، وأساس البلاغة ١ / ٢٩٠ (د هـ م) .

[5] المفردات في غريب القرآن : ١٥٠ .

قد أعْسِفُ النَّازِحَ المجهـولَ مَعْـسَفَةً

في ظِلِّ أَخْضرَ يـدعو هَامـةَ البُـومِ[1]

وقال الآخر ــ في إطلاق السواد على الخضرة ، في صفة نخـل ــ :

* دُهْمـًا كـأن الليلَ في زُهَائِهَـا *

* لا تَرْهَبُ الذئبَ على أَطْلائِهَا * [2]

ومن الانتقال المجازي ــ أيضًا ــ الشاة الدهماء ، أي : الحمراء الخالصة الحمرة ، كأن الحمرة قد غشيت أو غطت صوفها فلم تترك منه شـيئًا ، والعـرب تقول لهذا الضرب من الغنم أدهم ، وللواحدة دهمة أيضًا . [3]

ومن الانتقال من المحس إلى المعنوي قولهم للأحمـق : دهـيم[4] ، كـأن الجهل والغباء قد غشيا عقله ، ويقولون : جاء في عدد دهم ، وآصفقت على ذلك الدهماء ، أي : العدد الكثير ، كما قيل : السواد الأعظم [5] ، قال الشاعر :

فقـد أتـاكَ فقـدانُ الربيـعِ وليتَنـا

فـديناكَ مـن دهمائِنَـا بِـأُلوفِ [6]

وعلى تلك الدلالة العامـة جـاء قولـه ــ تعـالى ــ : "مُـدْهَامَّتَانِ" أي :

---

[1] البيت من " البسيط " لذي الرمة في ديوانه ٤٠١/١ ، والمفردات : ١٥٠ .

[2] البيتان من " الرجز " في المحكم ٤ / ٢٧٣ ، واللسان ٢ / ١٤٤٢ .

[3] المحيط في اللغة ٣ / ٤٥٢ ، وأساس البلاغة ٨ / ٢٩٠ (د هـ م) .

[4] المحيط في اللغة ٣ / ٤٥٢ (د هـ م) .

[5] أساس البلاغة ١ / ٢٩٠ (د هـ م) .

[6] البيت من " الطويل " وينظر في : أساس البلاغة ٢٩٠/١ ، والتاج ٢٩٩/٨ .

خضراوان من الري ناعمتان ، إذا اشتدت الخضرة ضربتا إلى السواد [1] . وقال الزجاج : " يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتهما إلى السواد ، وكل نبت أخضر فتمام خصبه وريه أن يضرب إلى السواد " . [2]

وقال الطاهر بن عاشور : " قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ وصف مشتق من الدهمة ــ بضم الدال ــ وهي السواد ، ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما ، حتى تكونا بالتفاف أشجارهما ، وقوة خضرتهما كالسوداوين ؛ لأن الشجر إذا كان ريان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد ، وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام ، وركب عليه قوله :

يا صاحبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكما
تَرَيَا وُجوهَ الأرضِ كيفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نهارًا مشْمِسًا قد شَابَه
زَهْرُ الرُبَا فكأنما هو مُقْمِرُ[3]

هذا ، وقد أورد المفسرون أدلة على أفضلية الجنتين الأوليين ، وشرفهما على الآخريين ، منها :

أحدها : أنه نعت الأولتين قبل هاتين،والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني .

---

[1] ينظر : تفسير مجاهد ٢ / ٦٤٣ ، وتفسير القرآن للصنعاني ٣ / ٣٦٦ ، وجامع البيان للطبري ٢٧ / ١٩٩ ، والقرطبي ٩ / ٦٥٨٤ .

[2] معاني القرآن وإعرابه ٥ / ١٠٣ .

[3] البيتان من " الكامل " وينظران في ديوانه ١٩٤/٢ ، والتحرير والتنوير ٢٧٢/٢٧ .

ثانيهما : وقال هناك : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [1] وهي : الأغصان أو الفنون في الملاذ ، وقال هنا : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي : سوداوان من شدة الري من الماء ، فوصف الأوليين بكثرة الأغصان ، وهنا بخضرتهما فحسب .

ثالثها : وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾[2] وقال ههنا : ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ والجري أقوى من النضخ .

رابعها : وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾[3] وقال ههنا : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد ، والتنويع على " فاكهة " وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ، ولهذا فسر قوله : " وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ " من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخاري وغيره .

خامسها : وقال في الأوليين : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو الديباج ، وفي الأخريين : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [4] والعبقري : الوشي ، ولاشك أن الديباج أعلى من الوشي ، والرفرف : كسر الخباء ولاشك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء .

سادسها : وقال في الأوليين ــ في صفة الحور ــ : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[5] وفي الأخريين : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾[6] وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان.[7]

---

[1] الرحمن : الآية ٤٨ .

[2] الرحمن : الآية ٥٠ .

[3] الرحمن : الآية ٥٢ .

[4] الرحمن : الآية ٧٦ .

[5] الرحمن : الآية ٥٨ .

[6] الرحمن : الآية ٧٠ .

[7] ينظر : القرطبي ٩ / ٦٥٨٣ ، ٦٥٨٤ ، وابن كثير ٤ / ٢٧٩ .

قال القرطبي : " وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدناه بقوله : " ومن دونهما جنتان ، ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر " . [1]

* ــ وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ﴾ . [2]

لما ذكر الحق (سبحانه وتعالى) أمر المعاش ــ فيما سبق من آيات ــ ذكر أمر المعاد ، وبين أن الناس في ذلك الوقت فريقان : أناس مسرورة فرحة ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة ، وأناس حزينة ، قد ظهر الحزن على وجوههم بما علاه من السواد ، وهم أهل النار ، الذي وصفهم الله تعالى ــ بالكفرة الفجرة . [3]

والغُبْرَةُ ــ بضم الغين ــ تغير اللون الذي يغبر للهم ونحوه ، ومن ذلك الغبار ــ بضم الغين ــ سمي بذلك لغيرته ، وهي لونه ، والأغبر ، كل لون لون غبار [4] ، ومن ذلك قولهم للذئب : الأغبر ؛ للونه ، وعليه قول طرفة :

رأيتُ بني غَبْرَاءَ لا يُنْكرونَني

ولا أهلُ هذاكَ الطِّرَافُ المُمَدد [5]

فبني غبراء : هم المحاويج الفقراء ؛ وذلك أنهم مغبرة ألوانهم ، وهم أهل المتربة . [6]

---

[1] القرطبي ٩ / ٦٥٨٤ .

[2] سورة عبس : الآيات ٣٨ ــ ٤٢ .

[3] القرطبي ١٠ / ٢٦٢ ، وابن كثير ٤ / ٤٧٤ .

[4] البارع / لأبى علي القالي : ٣١٣ ، ومقاييس اللغة ٤ / ٤٠٩ (غ ب ر) .

[5] البيت من " الطويل " وينظر في : ديوانه : ٣١ ، والبارع : ٣١٣ .

[6] المقاييس ٤ / ٤٠٩ ، والمحكم ٥ / ٥١٤ (غ ب ر) .

والغبراء : الأرض ؛ لغبرة لونها ، أو لما فيها من الغبار ، والغبيراء : نبيذ الذرة ، ولعل في لونه غبرة . (١)

ويقولون : أغْبَرَاليومُ : اشتد غباره ، وغبر الشيء : لطخه بالغبار ، وتغبَّر : تلطخ به ، وأغْبَّر الشيء : علاه الغبار . والغَبْرُ : لطخ الغبار ، والغُبْرَةُ : لونه ، والمِغْبَارُ من النخل : التي يعلوها الغبار . (٢)

ومن ذلك قيل : عن طريق الاستعارة والتشبيه : داهية الغَبَرِ ، يراد أنها غبراء ، أي : مظلمة ، مشبهه لا يرى وجه المأتي لها ، قال الراجز :

* أنتَ لنا منـذرٌ من بين البشـرْ *
* أنت لها إذ عجزتْ عنها مُضَـرْ *
* داهيةُ الدهـرِ وصمَّاءُ الغَبَـرْ *
* إن الجيادَ الضابعاتِ في الغَدَرْ * (٣)

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ يحتمل في تفسير " غبره " معنيين :

أحدهما : أن يكون على وجوه الكفار ترابًا ، فيكون الغبار ــ هنا ــ على حقيقته ، ويؤيد هذا التفسير ما جاء في أقوال بعض المفسرين : أن البهائم التي يصيرها الله ترابًا يومئذ ــ بعد القضاء بينها ــ يحول ذلك التراب غبرة في وجوه أهل الكفر(٤) ، وقول النبي (ﷺ) : " يلجم الكافر العرق ، ثم تقع الغبرة على وجوههم " قال : " فهو قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ . (٥)

---

(١) المفردات في غريب القرآن : ٣٦٩ ، والمحكم ٥ / ٥١٤ .
(٢) المحكم ٥ / ٥١٤ (غ ب ر) ، واللسان ٥ / ٣٤٠٦ (غ ب ر) .
(٣) الأبيات من " الرجز " قالها الحرمازي يمدح المنذر بن الجارود ، وهي في البارع : ٣١٣ ، وتاج العروس ٣ / ٤٣٧ .
(٤) جامع البيان ٣٠ / ٧٩ ، والقرطبي ١٠ / ٧٢٦٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٤ .

وقال الرازي : " الغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ... والقترة : سواد كالدخان ، وكأن الله ــ تعالى ــ جمع في وجوههم بين السواد والغبرة ، كما جمعوا بين الكفر والفجور".[1]

ثانيهما : يحتمل أن يكون المراد هو الغبرة ، أي : سواد ، وكآبة من شدة الموقف ، وهو ما أعده الله لهم من الخزي والعذاب.[2]

أما قوله تعالى : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ فقد قال الخليل : "القترة : ما يغشى الوجه من غبرة الموت والكرب ، يقال : غشيته قترة وقتر ، كله واحد ... " .[3]

وقال الجوهري : " القتر ــ بالتحريك ــ جمع القترة : وهي الغبار ، ومنه قوله (تعالى) : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ عن أبي عبيدة ، وأنشد للفرزدق :

مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ
مَوْجٌ ترى فَوْقَهُ الرايات والقَتَرا[4]

وما ذكره الجوهري يعد من قبيل الدلالة الأصلية للكلمة في اللغة ، حيث دلت ــ بحسب الوضع ــ على الغبار ، أما ما ذكره الخليل فيعد مرحلة تالية في دلالة الكلمة ، نشأت بسبب الانتقال وكثرة الاستعمال ، يدل على ذلك ما ذكره الأزهري من قوله : " القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان "[5] وقول ابن الأثير : " القترة : غبرة الجيش ، ومنه الحديث : " قد خلفتهم قترة رسول الله (ﷺ) أي: جاءت بعدهم " .[6]

---

(1) مفاتيح الغيب ١٦ / ٢٣١ ، وروح المعاني ٢٩/٦٢ .

(2) زاد المسير ٨ / ١٨٦ ، وفتح القدير ٥ / ٣٨٦ ، وتفسير الخازن ٧ / ٢١١ .

(3) العين ٥ / ١٢٥ (غ ب ر) .

(4) البيت من " البسيط " في ديوانه : ٢٩٠ ، ومجاز القرآن ٢ /٢٧٧ ، والصحاح ٢ / ٧٨٥ (ق ث ر) .

(5) تهذيب اللغة ٩ / ٥٢ (ق ت ر) .

(6) النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٢ (ق ت ر) .

ثم توسعوا في مفهوم الكلمة حتى أطلقت على كل لون يشبه الغبار ، من ذلك قولهم : ابن قترة : حية صغيرة تنطوي ، ثم تنزوا في الرأس ، والجمع بنات قترة ؛ سمي بذلك لأنه أغبر اللون ، صغير أرقط . ومن ذلك : القتير : وهو الشيب ؛ لأن بياض الشيب إذا خالط السواد صار لونه مغبرًا ، والقتير – أيضا – : مسامير حلق الدرع ، تراها لائحة ، يشبه بها الشيب إذا نقب بين الشعر الأسود . [1]

وعلى المعنيين فسر قوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [2] وقوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [3] فقيل : القترة فيهما هي : الغبرة ، أي : يغشي تلك الوجوه غبرة أو غبار . وقيل : القترة : كآبة وكسوف وسواد يظهر على الوجه ، فهو لون غبار ، وليس غبارًا حقيقة [4] . فتكون الغبرة مرادفة للقترة في المعنى ، جاءت بغرض التأكيد في الآية الثانية . على أن بعض المفسرين يرى أن الغبرة : ما كان أسفل في الأرض والقترة : ما ارتفع من الغبار، فلحق السماء ، والله أعلم بمراده . [5]

---

[1] مقاييس اللغة ٥ / ٥٥ ، واللسان ٥ / ٣٥٢٦ (ق ت ر) .

[2] يونس : الآية ٢٦ .

[3] عبس : الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

[4] جامع البيان ٣ / ٧٩ ، وزاد المسير ٨ / ١٨٦ ، ومجمع البيان ٥ / ١٧٧ ، ٢٧١/١٠ ، والقرطبي ١٠ / ٧٢٦٢ ، وفي ظلال القرآن : ٣٨٣٤ .

[5] الدر الصون ١٠ / ٦٩٦ ، وتفسير الخازن ٧ / ٢١١ ، وروح المعاني ٦٢/٢٩

* ــ وقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ . (١)

بدأت السورة بخطاب لرسول الله (ﷺ) ابتداء ، وهذا الأمر صادر إليه من ربه بهذه الصيغة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ الذي خلق كل شيء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه ، والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه . (٢)

ثم لما بين ــ سبحانه وتعالى ــ ما يختص به الناس أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم فقال : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ . (٣)

و(المَرْعَى) : هو النبت الذي ترعاه البهائم ، أو هو : ما تخرجه الأرض من النبات ، ومن الثمار والزروع والحشيش ، وعن ابن عباس : المَرْعَى: الكلأ الأخضر . (٤)

وإيثار كلمة (المَرْعَى) دون لفظ (النبات) لما تشعر به مادة (رع ى) من نفع الأنعام ، ونفعها للناس الذين يتخذونها مع رعاية الفاصلة .

و(الغُثَاءُ) ــ بضم الغين ــ وتخفيف الثاء وتشديدها ــ: هو ما يبس من النبت ، فحملته الأودية والمياه ، وألوت به الرياح . (٥)

---

(١) سورة الأعلى : الآيات ١ ــ ٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٨٨٣ .

(٣) مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٣ .

(٤) اللسان ٣ /١٦٧٧ (ر ع ى) ، ومفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٣ ، والتحرير والتنوير ٣٠/٢٧٨.

(٥) البارع : ٤٣٠ ، ومفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٣ .

و(الحُوَّةُ) : لون يخالط لون الكتمة [١] ، مثل : صدأ الحديد . وقال الأصمعي : " الحوة : تضرب إلى السواد ، يقال : قد احووَى الفرس يحوَوِي احْوَواءً ، قال : وبعض العرب يقول: احواوَى يحواوِى احوَيْواءً ... وبعض العرب تقول : حوى يحوى حوة ، حكاه في كتاب الفرس " . [٢]

والحُوَّةُ : سُمْرَةُ الشفة ، يقال : رجل أحْوى ، وامرأة حواء، وقد حويت [٣] ... ، قال ذو الرمة :

لمياءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ

وفي اللثاتِ وفي أنيابِها شَنَبُ[٤]

هذه هي الدلالة الأصلية للكلمة ، أي : الدلالة على الكمتة ، أو على حمرة تضرب إلى السواد . ثم كثر في كلامهم حتى سموا كل أسود : أحوى [٥] ، من ذلك حديث أبى عمر والنخعي : " ولدت جديًا أسفع أحوى " أي : أسود وليس بشديد السواد [٦] ، وأنشد ابن الأعرابي ــ في معنى السواد :

---

[١] الكتم ــ بالتحريك ــ : نبات لا يسمو صعدا ، وينبت في أصعب الصخر ، فتدلى تدليا خيطانًا لطيفًا ، وهو أخضر ، وورقه كورق الآس أو أصغر " .

اللسان ٥ / ٣٨٢٤ ، عن أبى حنيفة الدنيوري . وفي التهذيب : " الكتم : نبت فيه حمرة ،وروى عن أبى بكر أنه كان تختضب بالحناء والكتم " .

[٢] الصحاح ٦ / ٢٣٢٢ ، واللسان ٢ / ١٠٦٢ (ح و ا) .

[٣] السابق : المصدر والصفحة ، واللسان ٢ / ١٠٦٢ (ح و ا) .

[٤] البيت من " البسيط " في ديوانه ١ / ٣٢ ، واللسان ٢ / ١٠٦٢ .

[٥] اللسان ٢ / ١٠٦٢ (ح و ا) .

[٦] الفائق ٢ / ١٤٥ ، والنهاية ١ / ٤٤٧ .

كما رَكَـدَتْ حـواءُ أعْطَـى حُكْمَـهُ

بِهَا القَيْنُ مـنْ عُـودٍ تَعَلَّـلَ جَاذِبُـهْ [1]

يعني بالحواء : بكرة صنعت من عود أحوى ، أي : أسود وركدت : دارت ويكون : وقفت ، والقين : الصانع . [2]

ومن ذلك قولهم : جميم أحوى ، أي : يضرب إلى السواد من شدة خضرته ، وهـو أنعم ما يكون من النبات ، قال ابن الأعرابي : هو مما يبالغون بـه [3] . والأحوى : الأسود من الخضرة كما قال (تعالى) : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي : سـوداون من خضرتهما قال ذو الرمة ـ يصف روضة ـ :

حـواءُ قَرحُـاءُ أشـراطيةٌ وكَفَـتْ

فيهـا الـذهابُ وحفَّتهـا البَـرَاعيمُ [4]

هذا ، وقد فسر (الأحوى) في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ بتفسيرين لا يخرجان عن كون الحوة بمعنى السواد :

أحدهما : جعل ذلك المرعى غثاء ؛ وهو ما جف مـن النبـات ويـبس ، فطارت به الريح ، وإنما عنى به ـ ههنا ـ أنه جعله هشيما يابسًا متغيـرًا إلـى الحوة : وهي السواد من بعد الخضرة ، من شدة اليبس ؛ أو لأن الغثـاء إذا قـدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن فصار أحوى ، فتكون أحوى صفة لـ(غثاء) ".[5]

---

[1] البيت من " الطويل " في اللسان ٢ / ١٠٦٢ ، والتاج ٣ / ١٠٣ (ح و ا) .

[2] السابقان : المصدر والصفحة .

[3] تهذيب اللغة ٥ / ٢٩٣ ، واللسان ٢ / ١٠٦٢ (ح و ا) .

[4] البيت من " البسيط " فى ديوانه ١ / ٣٣٩ ، وجامع البيان ٣٠ / ١٨٩ .

[5] جامع البيان ٣٠ / ١٨٩ ، والقرطبي ١٠ / ٧٣٥٤ ، وروح المعاني ١٣٣/٢٩

وسبب ذلك السواد أمور :

أحدها : أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد على الهواء ، ومن شأن البرودة أنها تبيض الرطب ، وتسود اليابس .

وثانيها : أن يحملها السيل ، فيلصق بها أجزاء كدرة فتسود .

وثالثها : أن يحملها الريح ، فتلصق بها الغبار الكثير فتسود. [1]

الثاني : هو الأخضر الذي عليه سواد من شدة الخضرة والنضارة ، فتقدير الآية : الذي أخرج المرعى أحوى ، أي : أسود من خضرته ونضارته فجعله غثاء عند يبسه ، فيكون من المؤخر الذي معناه التقديم ، وأحوى على هذا القول (حال) ، كما قيل : (مُدْهَامَّتَانِ) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ [2] أي : أنزله قيما ، ولم يجعل له عوجًا . [3]

والفصل بالمعطوف بين (الحال وصاحبها) ليس فصلًا بأجنبي ، لاسيما وهو حال يعاقب الأول من غير تراخ ، وسر التقديم المبالغة في استعقاب حالة الجفاف ، حالة الرفيف والنضارة كأنه قبل أن يتم رفيفه ونضارته يصير غثاء ، ومع هذا هو خلاف الظاهر . [4]

وكل من المعنيين جائز في تفسير (الأحوى) لأن له وجهًا في اللغة ، غير أن المعنى الأول هو الأولى في تفسير الآية ، وهو الذي يسانده السياق ، ونظم الآيات ؛ لذا يقول ابن جرير الطبري في التفسير الثاني ــ : " وهذا القول ــ وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندي ، بخلاف تأويل بعضهم في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج

---

[1] مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٣ .

[2] الكهف : الآيتان ١ ، ٢ .

[3] جامع البيان ٣٠ / ١٨٩ ، والمفردات ١٤٠ ، وزاد المسير ٨ / ٢٢٧ ، ومفاتيح الغيب ١٦ / ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

[4] روح المعاني ٢٩ / ١٣٣ .

بالتقديم والتأخير ، إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه ، أو تأخيره ، فأما وله في موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير.[1]

هذا ، وفي وصف إخراج الله ـ تعالى ـ المرعى ، وجعله غثاء أحوى ـ ما مع سبقه ـ من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام ـ إيماء إلى تمثيل حال القرآن وهدايته ، وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس ، بحال الغيث الذي ينبت به المرعى،فتنتفع به الدواب والأنعام ، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله فيها ، كما يكمل المرعى ويبلغ نضجه حين يصير غثاء أحوى ، على طريقة الاستعارة التمثيلية المكنية ، رمز إليها بذكر لازم الغيث وهو المرعى .[2]

مما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم إذا كان قد استعمل الألوان الأساسية والمحايدة ، فإنه قد أشار ـ أيضًا ـ إلي الألوان الثانوية (الثنائية المتداخلة أو المتقاربة)،وقد استعمل كل ذلك في موضعه الأليق به الذي لا يصلح معه غيره .

---

[1] جامع البيان ٣٠ / ١٨٩ .

[2] التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٧٨ .

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ... أما بعد ،،،

فبفضل الله ــ وتوفيقه وعونه ــ قد انتهيت من هذه الدراسة المتعلقة بدراسة (الألوان واستعمالاتها في القرآن الكريم، وأثرها في السيكولوجية العربية دراسة تحليلية دلالية) وقد توصلت إلى نتائج أهمها:

أولًا : أن العرب ــ كسائر شعوب الأرض ــ قد عرفوا الألوان منذ قديم الزمن ، وعبروا بها وعنها ــ على مر العصور ــ في فنهم ، وأدبهم ، خلافًا لما يراه بعض المستشرقين ــ وممن تأثر بهم من العرب ــ ممن يرون أن الألوان عند العرب قليلة ، وأنهم لم يعرفوا تعدد درجات اللون .

ثانيًا : أدرك العرب ما للألوان من أثر في النفس البشرية من حيث إدراك النص الجمالي في الصورة التي يرسمها الفنان أو يوضحها الشاعر ، ومن حيث الحالة السيكولوجية لكل من المتكلم والمتلقي ؛ إذ قد تعبر ــ في كثير من الأحيان ــ عن مضمون الحالة في مقام يكون فيه التعبير باللون أبلغ من صريح اللفظ ، وأوقع في النفس كما في تصوير القرآن الكريم حال المجرمين يوم القيامة بأنهم يحشرون زرقًا .

ثالثًا : للألوان أهمية كبيرة في حياتنا ؛ إذ هي قوة موجبة جذابة ، تؤثر في جهازنا العصبي ، وللنفس راحة لا يستهان بها عند التطلع إليها ، وفوق ذلك فللألوان سلطانها الشامل على النفوس والطبائع والأمزجة،فهي تسمو بأرواحنا ، وتغذي إحساسنا ، وتريح أعصابنا .

رابعًا : للألوان دورها في الطب ، والفن ، والفلسفة ، والأدب على مر العصور ، ويعد تأثيرها على العقل والنفس من العوامل ذات الأهمية العظمى في حياتنا اليومية ، والاجتماعية ، فلا غرابة أن يُعْنَى القرآن الكريم عناية خاصة بالألوان ، ويلفت النظر إلى حاجتنا الماسة إليها .

خامساً : أن ذكر الألوان في القرآن الكريم ، واختلافها وبيان درجاتها ، وتوضيح مدلولاتها ، دليل كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه ، ودلائل حكمته ، كما أن فيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة الله ، وإرادة الفاعل المختار ، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته جل وعلا .

سادساً : استعمل القرآن الكريم الألوان الأساسية (الأحمر ، والأخضر ، والأزرق ، والأصفر) والألوان المحايدة (الأبيض والأسود) والألوان الثانوية (وهي التي تنتج بمزج لونين أو أكثر) كقوله تعالى : ﴿ أَخْوَى ﴾ ، و﴿ مُدْهَامَّتَانِ﴾ ، و﴿شِيَةَ﴾ وغيرها . ولم يكن القصد باستعمال اللون في القرآن الوصف الحسي فحسب ، وإنما بقصد التأثير على النفس البشرية ، وهو متجه دراسة الألوان في العصر الحديث ، وفي كل عصر .

سابعاً : على الرغم من أن اللون (الأحمر) ــ عادة ــ ما يذكر باندلاع الحرائق ، وبالمعارك الدامية ، وما تُحدثه من تدمير ، ولون الدم في الدنيا ، وبنيران جهنم في الآخرة ، إلا أن القرآن الكريم أراد أن يلفت نظرنا إلى الوجه الآخر الحسن لهذا اللون ، فقدمه وسط لوحة بهية زاهرة عامرة بآلاف الألوان والدرجات اللونية : ألوان الصخور ، والزروع ، والثمار ، والدواب ، والأنعام ، والناس ، وذلك كما في آيتي سورة فاطر.

ثامناً : عرف الإنسان اللون (الأخضر) منذ عرف الألوان ، وقد رمز به للنمو والخصوبة ، والنضارة ، والأمل ، والسكينة والهدوء ؛ إذ هو لون مريح للبصر ، يقاوم الإنهاك والشعور بالتعب ، كما ثبت أنه يعالج كثيرًا من الأمراض ، وقد استخدمه العربي في الجانب الإيجابي غالبًا ، والسلبي نادرًا . أما القرآن الكريم فقد وظفه في الجانب الإيجابي فقط ، في الدنيا والآخرة ؛ لهذا كان الأخضر محببًا عند المسلمين بعامة ، وعند رسول الله (ﷺ) بصفة خاصة .

تاسعاً : اللون (الأزرق) ثاني الألوان التي عرفها الإنسان الأول ، وهو لون شفاف ، منعش ، حالم ، قادر على تحقيق أجواء خيالية ، يشعر بالسلام ،

ويوحي بالتأمل ؛ لذا جعله الله لونًا للسماء والماء ، ليكثر الإنسان من النظر إليهما ، ورغم ذلك فإن القرآن الكريم أراد أن يلفت نظرنا للوجه الآخر لهذا اللون غير المنظور بوضوح ، وأن يبين لنا كيف أن الأزرق قادر على التعبير عن أقسى درجات الرعب والفزع التي يمكن أن تواجه البشر ، فاكتساء (عيون ، أو وجوه، أو أجسام المجرمين ، أو هي جميعًا) يوم الفزع الأكبر بهذا اللون ؛ لتعبير معجز بإيجاز شديد، وفي كلمة واحدة : " زرقا " عاش المتلقي الموقف والمشهد كاملًا غير منقوص ، إنه إعجاز وأي إعجاز !

عاشرًا : يعد اللون (الأصفر) أحد الألوان الأساسية التي عرفها الإنسان منذ عرف الألوان ، وأنه يعد من أكثر الألوان وضوحًا ، وأنه يحمل ــ في طياته ــ المعنى وضده ، وقد وظفه القرآن الكريم في الجانبين الإيجابي والسلبي ، فهو في البقرة الصفراء ، الفاقع لونها يسر الناظرين ، وفي سنابل القمح ، وثمار الفاكهة الناضجة يعبر عن الصحة والعافية والاكتمال .

أما في اصفرار الزرع ــ كما في سورتي الزمر والحديد ــ فإنه يعني فقد الحياة والنضارة ، وذلك مؤذن بيبسه وزواله . وفي سورة (المرسلات) شبه الحق (جل وعلا) النار بالجمال الصفر والمقصود من التشبيه العظم والتتابع في حجم البيت من الحجر ، فإذا تتابع ظهر كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ، فهو لون مرعب ، مفزع ، تقشعر منه أبدان الناظرين .

حادي عشر : أن (الأبيض والأسود) ليسا لونين ، بل يطلق عليهما (محايدات) لأنهما يتوافقان مع الألوان جميعها دون أية استثناءات على الإطلاق إنه غيبوبة الألوان ، وهما درجتان للون واحد ، يبدأ بالأبيض الفاتح ، وينتهي بالأسود ؛ لذا فإطلاق كلمة اللون عليهما يعد من قبيل المجاز والتوسع في التعبير.

ثاني عشر : أن (الأبيض والأسود) لا يكتسبان صفاتهما المتميزة إلا في ضوء ما يعبران عنه ، أو ما يحيط بهما ، فهو يؤثران ويتأثران بما يحيط بهما من ألوان وأشكال .

ثالث عشر : أن (الأبيض) يرمز للنورانية والتلؤلؤ ، كما في المعجزة التي وهبها الله لنبيه موسى (عليه السلام) ، وهي خروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء ، كما يرمز إلى الحزن والغم أيضًا ، كما في ابيضاض عين نبي الله يعقوب (عليه السلام) حزنًا وغمًا على فراق ولده .

رابع عشر : أن اسوداد بشرة الإنسان في الدنيا أو ابيضاضها إنما هو لمساعدة الإنسان على التواءم مع البيئة التي يعيش فيها ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فالسواد (عياذًا بالله) يعني : الحزن والغم ، والكآبة ، لما آل إليه مصير صاحبه ، بخلاف البياض الذي يعني ــ في الآخرة ــ البشر والسرور والفرح والبشارة بالخير ، لما يجده من حسن المصير .

خامس عشر : ورد ذكر (الأبيض والأسود) في القرآن الكريم في خمس عشرة آية ، كما أن مجموع الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الألوان (الأساسية) ــ أيضًا ــ خمس عشرة آية فهل هذا إشارة إلى ما توصل إليه العلم في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، من أن مجموع الألوان (الأساسية) يساوي الأبيض والأسود ؟! وهل فيما سبق إشارة إلى وجه جديد يضاف إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم والتي لا تعد ولا تحصى ؟ أحسب ذلك ، والله أعلم .

وبعد ،،،

فهذا بعض ما استخلصته من نتائج ، فإن أك قد وقفت ــ فيما عرضت له ــ فهو من توفيق الله (جل وعلا) ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد بذلك الجهد، والله من وراء القصد ، هو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

الباحث

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

أولاً : المطبوعات :

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ــ تح ــ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٢. أرجوزة في الطب لابن سينا ــ ط ــ المطبع المصطفائي ــ الهند ــ ١٢٦١هـ (نيت)

٣. أساس البلاغة / للزمخشري ــ ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٩٢م .

٤. الأساس في تفسير القرآن الكريم / سعيد حوى ــ ط ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ــ أولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٥. إصلاح المنطق / لابن السكيت ــ تح ــ عبد السلام هارون ــ ط ــ دار المعارف .

٦. أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن / لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي ــ تح ــ مكتب البحوث والدراسات ــ ط ــ دار الفكر ــ بيروت ــ ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

٧. الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) للدكتور : محمد أبو موسى ــ ط ــ مكتبة وهبة ــ الثالثة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

٨. إعجاز القرآن / للباقلاني ــ تح ــ أحمد محمد صقر ــ ط ــ دار المعارف الخامسة ١٩٨١م .

٩. الألفاظ لابن السكيت ــ تح الدكتور / فخر الدين قباوة ــ الناشر ــ مكتبة لبنان .

١٠. الألوان في القرآن / للدكتور : أحمد رأفت ــ ط ــ أولى ــ ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

١١. إملاء ما من به الرحمن / للعكبري ـ تح ـ إبراهيم عطوة عوض ـ ط مصطفى الحلبي ـ الثانية ـ ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
١٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل / للبيضاوي ـ راجعه ـ الأستاذ : عبد العزيز سيد الأهل ـ ط ـ المشهد الحسيني ـ القاهرة ـ ١٩٦٦م .
١٣. البارع في اللغة / لأبى علي القالي ـ تح ـ هاشم الطعان ـ ط مكتبة النهضة ـ بغداد ـ ودار الحضارة العربية ـ بيروت ـ ط ١٩٧٥م .
١٤. البحر المحيط / لأبى حيان الأندلسي ـ ط ـ دار الفكر العربي ـ بيروت ـ الثانية ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .
١٥. بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز / للفيروز أبادي ـ تح ـ محمد على النجار ـ ط ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ .
١٦. تاج العروس / للزبيدي ـ ط ـ الخيرية ـ القاهرة ـ ١٣٠٤هـ / ١٩٠٦م .
١٧. تاج اللغة وصحاح العربية / للجوهري ـ تح ـ أحمد عبد الغفور عطار ـ ط ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ أولى ـ ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .
١٨. التبيان في تفسير القرآن / للطوسي ـ تح ـ أحمد حبيب نصير العاملي ـ ط ـ دار الهدى ـ من دون تاريخ .
١٩. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم / لابن لأبى الإصبع المصري ـ تح ـ الدكتور : حفني محمد شرف ـ ط ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٤١٦هـ /١٩٩٦م
٢٠. التحرير والتنوير / للطاهر بن عاشور ـ ط ـ دار سحنون ـ تونس ـ دون تاريخ .
٢١. التصوير الفني في القرآن الكريم / لسيد قطب ـ ط ـ دار المعارف بمصر ـ الثامنة ـ ١٩٧٥م .

٢٢. التعريفات / لمحمد بن علي الجرجاني ــ تح ــ الدكتور: عبد الرحمن عميرة ــ ط ــ عالم الكتب ــ أولى ــ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٢٣. تفسير القرآن الكريم / للشيخ محمد متولي الشعراوي ــ ط ــ مطابع دار أخبار اليوم ــ القاهرة .

٢٤. تفسير القرآن العظيم / لابن كثير ــ ط ــ مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ دون تاريخ .

٢٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ــ تح ــ ابن عثيمين ــ ط ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

٢٦. تفسير مجاهد ــ تح ــ عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي ــ ط ــ المنشورات العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٢٧. تهذيب اللغة / لأبي منصور الأزهري ــ تح ــ عبد السلام هارون و(آخرين) ــ ط ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ ــ ١٩٦٧م .

٢٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن / للطبري ــ تح ــ محمود محمد شاكر ــ ط ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٨م

٢٩. الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ــ ط ــ دار الغد العربي ــ دون تاريخ .

٣٠. جمهرة أشعار العرب ــ شرحه وضبطه وقدم له ــ على فاعور ــ ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٣١. جمهرة اللغة / لابن دريد ــ ط ــ حيدر أباد ــ الدكن ــ الهند ــ ١٣٤٤هـ / ١٩٥١م .

٣٢. الجواهر في تفسير القرآن / للشيخ : طنطاوي جوهري ط / مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ــ الثانية ــ ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م .

٣٣. حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي / لشهاب الدين الخفاجي (ضبط) الشيخ / عبد الرازق المهدي ــ ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

٣٤. الحاوي في الطب / لأبى بكر الرازي ــ تح ــ هيثم خليفة طعيني ــ ط ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ أولى ــ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

٣٥. دراسات لغوية في القرآن (الألوان) للدكتور : ماهر أحمد البقري ــ ط ــ مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ــ الإسكندرية ــ ١٩٨٢م

٣٦. دراسات نظرية في الفن العربي / للدكتور : عفيف بهنسي ــ ط ــ المكتبة الثقافية ــ القاهرة ــ ١٩٧٤م

٣٧. الدّر المصون / للسمين الحلبي ــ تح ــ الدكتور : أحمد الخراط ــ ط ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٣٨. ديوان ابن مقبل ــ تح الدكتور / عزة حسن ــ ط ــ دار الشروق ــ بيروت ــ ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

٣٩. ديوان ابن هانئ الأندلسي ــ ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ دون تاريخ.

٤٠. ديوان أبى تمام بشرح التبريزي ــ تح ــ محمد عبده عزام ــ ط ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٥م .

٤١. ديوان الأخطل ــ شرحه وقدم له ــ مهدي محمد ناصر الدين ــ ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٤٢. ديوان الأعشى ــ ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ دون تاريخ .

٤٣. ديوان امرئ القيس ــ تح ــ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط ــ دار المعارف بمصر ــ الخامسة ــ دون تاريخ .

٤٤. ديوان أمية بن أبى الصلت ــ جمعه وحققه وشرحه الدكتور / سجيع جميل الجبيلي ــ ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٩٨م .

٤٥. ديوان البحتري ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ أولى ـ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٤٦. ديوان تأبط شرا ـ إعداد وتقديم ـ طلال حرب ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ أولى ١٩٩٦م

٤٧. ديوان جرير ـ جمع ـ محمد إسماعيل عبد الله الصاوي ـ ط ـ الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٤٨. ديوان حاتم الطائي ـ تح / أحمد رشاد ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ / ١٩٩٦م .

٤٩. ديوان الحطيئة (رواية وشرح ابن السكيت) ـ تح ـ الدكتور : نعمان محمد أمين طه ـ ط ـ المدني ـ أولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٥٠. ديوان الخنساء ـ ط ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٥١. ديوان ذي الرمة ـ تح ـ الدكتور : عبد القدوس أبو صالح ـ ط ـ طربين ـ دمشق ـ ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م .

٥٢. ديوان زهير بن أبى سلمى ـ ط ـ دار صادر بيروت ـ دون تاريخ .

٥٣. ديوان زهير ـ شرح وتقديم ـ علي حسن فاعور ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٥٤. ديوان سبط التعاويذي ـ تصحيح ـ الدكتور : ديس مرجليوس ـ ط ـ المقتطف بمصر ـ ١٩٠٣م .

٥٥. ديوان الشريف الرضي ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٥٦. ديوان الشماخ ـ تح ـ صلاح الدين الهاوي ـ ط ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٨م .

٥٧. ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ـ تح ـ الدكتور/ محمد يوسف ناجي ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٥٨. ديوان عدي بن الرقاع العاملي (رواية ثعلب) ـ تح الدكتور / نوري حمودي القيسي ، والدكتور / حاتم صالح الضامن ـ ط ـ المجمع العلمي العراقي ـ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٥٩. ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٨م .

٦٠. ديوان عنترة العبسي (جمع وشرح) الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ـ ط ـ عاطف بمصر ـ أولى ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

٦١. ديوان الفرزدق ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٦٢. ديوان كثير عزة ـ شرحه ـ عدنان زكي درويش ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٩٧م .

٦٣. ديوان كعب بن زهير ـ تح ـ علي حسن فاعور ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ أولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٦٤. ديوان لبيد ـ ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٦٥. ديوان معروف الرصافي ـ ط ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ ١٩٧١م.

٦٦. ديوان النابغة الذبياني ـ ط ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

٦٧. ديوان النابغة الذبياني ـ ط ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٦٨. الرسم بالألوان في القرآن ـ للدكتور : أحمد رأفت ـ ط ـ دار الجيل للنشر والتوزيع والإعلام ـ دون تاريخ

٦٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / للألوسي ـ ط ـ دار الفكر العربي ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٧٠. زاد المسير في تفسير الكتاب العزيز / لابن الجوزي ـ ط ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ دون تاريخ .

٧١. سنن أبى داود ـ تح ـ محمد عبد العزيز الخالدي ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

٧٢. سنن الترمذي ـ تح ـ إبراهيم عطوه ـ ط ـ عيسى الحلبي ـ أولى ـ ١٤٧١هـ / ١٩٥٢م .

٧٣. سنن ابن ماجه ـ تح ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط دار الفكر العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ .

٧٤. شرح القصائد السبع الطوال ، لأبى بكر الأنباري ـ تح ـ عبد السلام هارون ـ ط ـ دار المعارف بمصر ـ ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٧٥. شرح المعلقات السبع / للزوزني ـ ط ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الثانية ـ ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٧٦. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ـ جمع وتصحيح ـ الشيخ أحمد الشنقيطي .

٧٧. صحيح البخاري ـ ط ـ دار الشعب ـ ١٣١٤هـ

٧٨. صحيح مسلم ـ تح ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط ـ عيسى الحلبي ـ ١٩٥٥م .

٧٩. العين / للخليل بن أحمد ـ تح ـ الدكتور : مهدي المخزومي ، والدكتور / إبراهيم السامرائي ـ ط ـ العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٧م / ١٩٨٥م .

٨٠. غريب الحديث / لأبى سليمان الخطابي ـ تح ـ عبد الكريم الغرباوي ـ ط ـ بالأوفست عن دار الفكر العربي ـ دمشق ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٨١. غريب الحديث / لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ تح ـ الدكتور : محمد معبد خان ـ ط ـ حيدر أباد ١٩٦٤م .

٨٢. الغريب المصنف / لأبى عبيد القاسم بن سلام ــ تح ــ الدكتور : محمد المختار العبيدي ــ ط ــ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنــون ودار سحنون للنشر والتوزيع ــ الثانية ــ ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
٨٣. الفائق في غريب الحديث / للزمخشري ــ تح ــ علي محمد البجاوي ــ ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط ــ عيسى الحلبي ــ ١٩٤٨م .
٨٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير / لمحمد بن علي الشوكاني ــ ط ــ دار الفكر العربي ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
٨٥. في ظلال القرآن / للشهيد : سيد قطب ــ ط ــ دار الشروق ــ العاشرة ــ ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
٨٦. في سبيل موسوعة علمية / للدكتور : أحمد زكي ــ ط ــ دار الشروق ــ لبنان ــ ١٩٧٧م .
٨٧. قاموس الألوان عند العرب / للدكتور : عبد الحميد إبراهيم ــ ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م
٨٨. القاموس المحيط / للفيروز أبادي ــ ط ــ مصطفى الحلبي ــ ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
٨٩. كتاب الحيوان / للجاحظ ــ تقديم الدكتور : أحمد فؤاد باشا (و) الدكتور : عبد الحكيم راضي ــ ط ــ مكتبة الأسرة ــ ٢٠٠٤م .
٩٠. الكشاف للزمخشري ــ راجعه ــ مصطفى حسين أحمد ط ــ الاستقامة ــ القاهرة ــ ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .
٩١. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / لعلاء الدين بن حسام الهندي ــ ضبط وتصحيح الشيخ : حسن رزق وآخرين ــ ط ــ البلاغة ــ حلب ــ دون تاريخ .

٩٢. لباب التأويل في معاني التنزيل / للخازن ، وبهامشه تفسير البغوي المعروف بـ(معالم التنزيل) ـــ ط ـ مصطفى الحلبي ـ الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

٩٣. لسان العرب / لابن منظور ـ تح ـ عبد الله الكبير (و) آخرين ـ ط ـ دار المعارف بمصر ـ دون تاريخ

٩٤. لطائف الإرشادات / لأبي القاسم : عبد الكريم بن عبد الملك القشيري النيسابوري ـ تح ـ عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

٩٥. مجاز القرآن / لأبي عبيدة : معمر بن المثنى ـ تعليق محمد فؤاد سركين ـ ط ـ الخانجي ـ مصر ـ دون تاريخ .

٩٦. مجمع الأمثال / للميداني ـ تح ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط ـ دار الجيل ـ لبنان ـ الثانية ـ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٩٧. المجمل في اللغة / لابن فارس ـ تح ـ زهير عبد المحسن سلطان ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٩٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لابن عطية ـ تح ـ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (و) السيد عبد العال السيد ـ ط ـ دار الفكر العربي ـ بيروت الثانية ـ دون تاريخ .

٩٩. المحكم في نقط المصاحف / لأبي عمرو الداني ـ تح ـ الدكتور : عزه حسن ـ ط ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الثانية ـ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

١٠٠. المحكم والمحيط الأعظم / لابن سيده ـ تح ـ الدكتور : عبد الحكيم هنداوي ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

١٠١. المحيط في اللغة / لابن عباد ـ تح ـ الشيخ : محمد حسن آل ياسين ـ ط ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٩٤م .

١٠٢. المخصص / لابن سيده ــ ط ــ الأميرية ــ بولاق ــ ١٣٢٠هـ .
١٠٣. المذكر والمؤنث / للفراء ــ تح ــ الدكتور : رمضان عبد التواب ــ ط ــ دار التراث ــ القاهرة ١٩٧٥م .
١٠٤. المستقصي في أمثال العرب / للزمخشري ــ ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الثانية ــ ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
١٠٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل ــ ط ــ دار الفكر العربي ــ بيروت ــ دون تاريخ .
١٠٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير / للفيومي ــ تح ــ عبد العظيم الشناوي ــ ط ــ دار المعارف بمصر دون تاريخ .
١٠٧. معاني القرآن / للأخفش ــ تح ــ الدكتور : عبد الأمير محمد أمين الورد ــ ط ــ عالم الكتب ــ بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
١٠٨. معاني القرآن / للفراء ــ تح ــ أحمد يوسف نجاتي (و) محمد علي النجار ــ ط ــ الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
١٠٩. معاني القرآن وإعرابه / للزجاج ــ تح ــ الدكتور عبد الجليل شلبي ــ ط ــ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ــ ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م .
١١٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / لمحمد فؤاد عبد الباقي ــ ط ــ دار الفكر العربي ــ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
١١١. المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية ــ ط ــ الثالثة ــ دون تاريخ .
١١٢. مفاتيح الغيب / للرازي ــ ط ــ دار الغد العربي ــ القاهرة ــ ١٩٩٢م ــ ١٤١٢هـ .
١١٣. المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني ــ راجعه وقدم له ــ وائل أحمد عبد الرحمن ــ ط ــ المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ــ دون تاريخ .

١١٤. المقامات الأدبية (المقامة البغدادية) ـ للحريري ـ ط ـ الحسينية ـ مصر ـ ١٣٣٩هـ .

١١٥. مقاييس اللغة / لابن فارس ـ تح ـ عبد السلام هارون ـ ط ـ دار إحياء الكتب العربية (مصطفى الحلبي) ـ الثانية ـ ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

١١٦. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء) و (ثم) ـ للدكتور : محمد الأمين الخضري ـ الناشر ـ مكتبة وهبة ـ ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

١١٧. الميزان في تفسير القرآن / للطباطبائي ـ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ أولى ـ ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

١١٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / للبقاعي ـ خرج آياته وأحاديثه ، ووضع حواشيه ـ عبد الرازق غالب المهدي ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

١١٩. النهاية في غريب الحديث والأثر / لابن الأثير ـ تح ـ الدكتور : محمود الطنحاوي (و) طاهر أحمد الزاوي ـ ط ـ عيسى الحلبي ـ ١٩٦٣م .

١٢٠. النهر الماد من البحر المحيط / لأبى حيان الأندلسي ـ مطبوع بهامش البحر المحيط ـ ط ـ دار الفكر العربي ـ بيروت ـ الثانية ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ثانياً : الرسائل العلمية :

١٢١. متشابه البناء التركيبي لمظاهر الطبيعة في القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ رسالة ماجستير مقدمة من الباحثة : نهى أحمد محمد عبد الرحمن ـ كلية اللغة العربية بأسيوط .

ثالثاً : الدوريات العلمية والمواقع الإلكترونية :

١٢٢. الألوان في القرآن / أحمد بن ناصر الرازحي (مقالة) نشرتها مجلة العربية السعودية (انترنت) .

١٢٣. الألوان في القرآن الكريم بلاغة البيان الإلهي (دون مؤلف) ــ مقالة على النت من موقع (حسام باسم : التميز هو غايتنا) .

١٢٤. الألوان في القرآن الكريم تحمل مدلولات رمزية وأهدافًا (من موقع حسام ــ انترنيت) .

١٢٥. الألوان في القرآن ومعجم اللغة / لمنصور مهران ــ مقالة ــ على النت ــ ديسمبر ــ ٢٠٠٥م .

١٢٦. الألوان ودلالتها في القرآن الكريم / للدكتور : سليمان بن علي بن عامر الشعيلي ــ مجلة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية ــ المجلد الرابع ــ العدد الثالث ــ رمضان ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

١٢٧. إيقاع اللون في الخطاب القرآني (دراسة سيجمائية) للدكتور : حسين عبد الهادي الرحيلي (مقالة على النت) .

١٢٨. دلالة الألوان في اللغة العربية ــ مقالة للأستاذ : مجدي حلبص من موقع المنتدى التربوي التاسع لسلطنة عمان ــ وزارة التربية والتعليم ــ انترنيت .

١٢٩. علاقة الماء بالصخور ــ بحث علمي عن الإعجاز العلمي فى الكتاب والسنة ــ للدكتور / راتب النابلسي على الإنترنت .

١٣٠. مقالة بعنوان : " الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا " ــ ضمن الإشارات الكونية ومغزى دلالتها العلمية في القرآن الكريم / للدكتور : زغلول النجار .

تم بحمد الله وتوفيقه ،،،